
قلوب واهنة
فريد شوقي

قلوب واهنة

فريد شوقي

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع



رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : قلوب واهنة
المؤلف : فريد شوقي
تصنيف الكتاب : مجموعة قصصية
تصميم وإخراج : أحمد عبد الحليم
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٢٦١١ / ٢٠١٧
الترقيم الدولى : 6 - 520 - 776 - 977 - 978

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢
Email : yastoron@gmail.com
موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

إهداء إلى..

أبي العزيز الذي أورثني حنانه ،

وأمي الحبيبة التي أورثتني عزمها وصبرها.

أقدم كتابي هذا قربانًا تحت أقدامكما لعله يكون شفيعي.

تمهيد

الحياة مليئة بالمعاناة، وكل منا يرى معاناته في شيء ربما لا يرى الآخرون فيه معاناة، لهذا بعضنا ينظر إلى ما حوله من البشر ويقارن بين مأساته ومأساتهم، فيظن أنه أكثر تعاسة وألماً وأقل حظاً من الآخرين، وربما يظن العكس!

نعم..ربما ترى غيرك أقل ألماً منك، ولكن هذا لا يعني أنه لا يتألم!

وبين دفتي هذا الكتاب مجموعة قصصية رسمتُ فيها معاناة بعض البشر، سواء كانت هذه المعاناة مع الفقر أو الجوع أو الحب أو الندم أو الفراق أو حتى مع البشر أنفسهم..كلها معاناة، وإن كانتْ هذه الأحداث جميعها لم تحدث إلا داخل خيالي، ففكرتها الأساسية مأخوذة من جوف الحياة، وكل ما حدث في خيالي ربما حدث في الواقع أو ربما يحدث أو سيحدث، ولا تحتاج إلا أن تلقي نظرة واحدة على الحياة لتعلم كيف يحدث وكيف سينتهي الأمر!

وسبب كتابتي لهذه المقدمة هو أن أوضح لك أنه إن كنت سترى معاناة بطل/ـة إحدى القصص (بسيطة)، ولا تستحق أن توصف بالمعاناة فأعلم أنك صائب ومخطئ نسبياً، لأنك تقيسها

بمعاناتـك، واعلـم أن كل مـا يحـدث ضـد إرادة الإنسـان معانـاة لـه، وأظـن أن الـذي أصيـب بالأوجـاع مـن فـراق حبيبتـه يشـعر بنفـس أوجـاع مـوت أقربائـه أو فقـدان عملـه أو عـدم تحقيـق آمالـه!

ولأن لكل إنسان أفكاره ومبادءه الخاصة وكذلك أبطال قصصي..

فـلا تلـم أحدهـم – أي أبطـال قصصـي– علـى أن أفـكاره ومبـادءه يخالفـان أفـكارك ومبادءك..لأنـني لا ألومـه علـى ذلـك!

وتذكر أن القاص ليس ما يكتبه!

ولقـد آثـرتُ في كتابـة هـذه المجموعـة أن أتجنـب خلـق الأسمـاء، لأنـني أريـد منـك، قارئـي العزيـز؛ وإن حدثـتْ الصدفـة ووجـدتَ أن إحـدى القصـص تشـابه قصتـك في الحقيقـة، أن تعيـش أحـداث هـذه القصـة باسمـك أو بالأسمـاء الـتي تختارهـا!

★★★

وفي النهايـة أعتـذر لقارئـتي العزيـزة أنـني اسـتخدمتُ كلمـات كثيرة تُشـير إلى قارئـي أنـه ذكـر ولا يُخفـى عليـكِ حزنـي مـن ذلـك، وكنـتُ أتمـني لـو أن اللغـة العربيـة لا تفـرق بـين الذكـر والأنثـى في الحـروف كمـا تفـرق الأمـة العربيـة بينهـم في الحيـاة الاجتماعيـة، فـلا تسـمحي للحـروف بـأن تخدعـكِ!

★★★

أتمنـى أن تسـتمتع/ي بوقتـك.. وأن تنتهـي مـن الصفحـة الأخـيرة وقـد تركـتُ بداخلـك أثـر!

مهلاً!

عندما يكون الفراق دواءً،

أدرك أنني اكتفيتُ من الألمِ!



الزهرة الأولى

جلسنا معًا فوق صخر على ضفاف النهر، نراقب حركة المياه الهادئة، ونتأمل ما حولنا من صخور ونباتات، بينما أطوق خصرها بذراعي ورأسها ساكن فوق كتفي..

صامتان، هادئان، متحابان، لا نشعر إلا بنبض صدرينا، ولا نصغي إلا لشهيق وزفير قلبينا.

انتبهتُ لزورق يشق منتصف النهر فأخذتُ أتأمله وأراقب أفعال الصياد القائم فوقه، وهو يلقي بشباكه فوق المياه، فتهوي وكأنها تحتضنها ومن ثم يقلقل المركب بقدميه، وأراقب طفلته الصغيرة التي تعبث بيديها في سلة الأسماك.

قبل أن يُخرجني من شرودي صوتها الخافت.

— ألا تزال حزيناً، مُستاءً مني؟

أجبتها:

— قطعاً لست كذلك.

وبينما أخفض رأسي قليلا أتطلع إلى شفافية المياه أسفلنا، همستْ:

– أتعلم، إنني أحبك حبًّا مختلفا، لا يدري البشر عنه شيئاً!

مازحتُها قائلاً:

– وهل يدري من هم دون البشر عن هذا الحب؟

أشرقتْ قسماتُها، وارتسمتْ ابتسامة خفيفة على شفتيها، وهي تأكد:

– نعم، العصافير تدري ذلك، فعندما تغرد، تنشد لعشيقها القصائد!

اعتلت وجهي ابتسامة ساخرة، وأنا أسألها:

– وهل أنتِ، عصفور يغرد؟

– نعم، بالتأكيد أنا كذلك.

ومن ثم أصدرتْ أصواتًا تماثل تغريد العصافير، فعلا صوت ضحكاتنا قبل أن أخبرها، بأنني لمْ أدرك حرفاً واحداً من قصيدتها.

فقالت في تذمر..

– بل أدركتَ كل حرفاً فيها.

– لا لمْ أدرك.. فأنا من البشر.

رجوتها أن تشرح لي قصيدتها:

– كنتُ أقول لكَ، «أحبك..أحبك، حد الجنون».

ابتسمتُ لها وأنا أقول:

- حسناً أوعدك من اليوم أن أتعلم لغة العصافير.

وصمتُّ برهة قبل أن أضيف ممازحاً:

- يمكنني أن أشتري كتاب (تعلم لغة العصافير، بدون معلم في أربعة أيام).

قلتها، فحدقت فيَّ بحنق..برهة، ومن ثم انتفضتْ من جانبي مُهتاجة وأخذتْ تهوي فوقي بضربات قوية، وبينما أتفادى ضرباتها وأنا أقهقه بصوت عالٍ، اختل توازني وكدتُ أن أهوي في المياه، إلا أنها اجتذبتني سريعًا وبقوة إلى الخلف..تضمني بين ذراعيها وهي خائفة، فزعة، بينما أستشعر جسدها يرتعد، ووجيف قلبها يعتذر!

نسيتُ، أو تناسيتُ ما حدث، وسكنتُ بين ذراعيها ملياً.. غارقاً، ذائباً، مُسدل الجفنين، حتى توجسنا صوت أحد المارة، وهو يقهقه، ويغمغم، فانتفضنا سريعًا مُبتعدين، وامتقع وجهها خجلاً، فازدادتْ وجنتيها حُمره.

اعتدلتُ مرة أخرى في مجلسي، واعتدلتْ هي الأخرى، وانشغلتْ بالتطلع إلي شئ ما!، في حين أخذتُ أجوب بعيني بحثاً عن الصياد، فإذا به قد ابتعد كثيراً، فتأملتُ صورته وهي تتلاشى شيئًا فشيئًا.

هُنَيْهَة، وعدتُ أتتطلع إليها، كان احمرار وجنتيها قد زال. فسألتها عن حالها، فأجابتني:

– ما بالك بحالي، مهما كان حالي فلا أدعه يُشغلني وأنا معكَ.

علقتُ على كلماتها بابتسامة صادقة، ودمعة حزن وأسى هوت مني عفويًّا عندما التفتُّ برأسي إلى الجانب الآخر، أفتعل انشغال عينيّ في شيء ما.

وعقلي يتساءل:

ما بالي لا أقدر على أخبارها بما اتفق عليه والديّ؟! ربما لأنني لا أريد أن أفطر قلبها حزناً، ولا أريدُ أن أضنيه وأثقله وقد شغفه حبي..

ولا أريدُ أن أفصح لها عما يدور بداخلي، من خوف اجتاحني، أو شك لازمني.

وبعد تنهيدة طويلة خرجتْ دون إرادتي، نازعني من شرودي صوتها وهي تسأل:

– ما بكَ؟

– لا شيء.

– بل بك شيء، ماذا تُخبئ عني؟

صمتُّ هُنَيْهَة في شيء من الارتباك والتردد، ومن ثم تجاسرتُ وأفصحتُ لها عن نية والديّ في الانتقال إلى منزل جديد، خارج حدود مدينتها.

وجمتْ وهي تسألني:

- ماذا تقصد؟

اكتفيتُ بصمتي، فقد بدا أنها لن تحتمل أي إضافة مني، ولكنها سألتني:

- ألا تحبني؟.. إن كنتَ تحبني، ستأتي من أجلي كلما سمحت لك الفرصة، وستُبقي على حبنا، هل تريد أن تُبقي عليه وتبقى معي؟

- بالطبع أحبك، وأريد البقاء معكِ.

قُلتها، ويعلم قلبي أنني صدقتُ في الأولى وكذبتُ في الثانية، ومع أنني أجبتها فقد بدا أن إجابتي لمْ تُرضها، وامتقع وجهها، وخيّم عليه الحزن، وسالتْ دموعها سريعًا فوق وجنتيها، وانتبهتُ لارتعاد يديها، فقبضتُ على يديها براحة يدي، وكفكفتُ دموعها وأنا أعتذر، وعيناايّ تتفادى النظر إلى عينيها الجاحظة الحزينة وهي تُطيل النظر إلى عينيّ في تساؤل، وذُعر، وحيرة!

وبعد هُنَيْهَة، زاغتْ فيها الشمسُ، أخبرتها أن علينا العودة، فنهضتْ متأهبة.

★★★

سارتْ بجواري مُتأخرة عني بخطوة أو خطوتين، وعيناها لا تزال تُطيل النظر إليَّ حد السكون، وبعد أن اجتزنا الطريق الذي عليها العودة منه، أومأتُ لها..فوقفتْ، وبدا أنها شاردة واجمة، لا تدرك مقصدي!

فأخبرتهـا بأنهـا قـد اجتـازتْ طريقهـا، فانتبهـتْ لمقصـدي، واسـتدارتْ مُصححـة طريقهـا ومضـتْ تبتعـد، في حـين أخـذتُ أراقبهـا وهـي تعـبر الطريـق بخطـوات مـترددة دون اكـتراث بأصـوات العربـات الصاخـب أو سـرعتها.

وخيـل إلـيَّ أنها تُريد أن تسـتدير وتنظـر إلىّ، ولكنها أبت أن تفعل!

ظـل الشعور بالذنـب والنـدم يُناكفانـني طيلـة الأسـابيع الـتي تلـت ذلـك اليـوم، ومـا زادنـي حزنـا أنـني لمْ أخبرهـا عندمـا أزف الرحيـل.

رحلـتُ دون حتـى أن أودعهـا، فقـط اكتفيـتُ بمكالمـة هاتفيـة قصـيرة مضطربـة بعـد عـدة أيـام مـن رحيلـي، وواسـيتها بوعـدي:

- إذا سنحت لي الفرصة، سآتي لألقاكِ قريبا!

وعلقتْ قبل أن تُنهي المكالمة وصوتها يفتعل عدم الاكتراث:

- حسنا، سأنتظرك، إلى اللقاء.

★★★

تسـكعنا معًـا في شـوارع المدينـة، نتحـدث ونتسـاءل عـن حـال بعضنـا.

أخـذتْ تُجيبـني بأخبـار جيـدة عـن حالهـا وعـن سـعادتها، مـع أنـني كنـتُ أدري كل شـيء عنهـا مـن أصدقائنـا، فقـد قالـتْ لـي إحداهـنّ إن حالهـا قـد بـات أكثـر سـوءًا وباتـتْ تغيـب في دوامـات مـن الشـرود الطويلـة، وران علـى وجههـا كآبـة بـدت دائمـة، وقـد أخبرتهـا صديقتهـا تلـك أنهـا باتـتْ أكثـر إهمـالاً في ملبسـها.

وكان هـذا عكـس مـا رأتـه عينـاي، فقـد بـدا في ذلـك اليـوم أنهـا ارتـدتْ أفضـل ملابسـها.

جلسـنا معًـا في أحـد المقاهـي، نرتشـف عصـير الليمـون، ونتحـدث في عـدة أمور..غـير مهمـة!

وكان يخيّم علينا الصمت بعد كل جملة أو جملتين.

وبعـد سـاعتين أو أقـل بقليـل، أخبرتهـا بأنـه يجيـب علـيَّ العودة، فسـمحتْ لي.

وأمـام بـاب المقهـى مـدتْ يديهـا تصافحـني، فالتقطـتُ أناملهـا الـتي سـحبتها سـريعا حتـى لا أشـعر بارتعادهـا !

لـو أن أناملهـا مكثـت قليـلا بـين أصابعـي، ربمـا كان انكشـف لهـا ارتعـاد قلـبي، ولـو أنهـا رفعـتْ رأسـها قليـلاً عاليـاً لتتطلـع إلى عيـنيّ لانتبهـتْ للمعـان الدمـوع بهمـا وهـي تقـف كالحاجـز يشـوه صورتهـا.

استدارتْ ورحلتْ دون أن تنبس بأي كلمة.

وفي طريـق عودتـي، تمنيـتُ أن أجـد حـلاً يخفـف ألمهـا، ويضمـد جروحهـا..

لمْ يعـد بمقـدوري أن أضمـد جـراح غـيري، وإن فعلـتُ فمـن سـيضمد جراحي.

وتمنيـتُ أن يأتـي لهـا حـب، ينسـخ حزنهـا، ويضـيء ابتسـامتها، لتشـرق قسـماتها مـن جديـد.

★★★

وناكفـني الحــزنُ والنـدم حتــى قابلتهــا مـرة أخـرى بعـد شــهر، لكنهـا كانـت مقابلـة علـى غـرار سابقتها، وكان بينهمـا عـدة مكالمـات سـريعة مضطربـة.

وبعـد انصرام عـدة أشـهر أخـرى، قابلتهـا، وفي هـذه المـرة كـدتُ أقـول لهـا:

أحبك، إنني آسف على كل ما مضى، هل تصفحين عني؟!

ولكـن مـا منعـني مـن قـول ذلـك، أنهـا بـدتْ أكثـر إشـراقًا، وأكثـر اتزانـاً، وأخبرتـني بـأن لديهـا الآن مـن يهتـم بهـا!

افتعلـتُ صرامـتي، وعـدم اكتراثـي، وتمنيـتُ لهـا السـعادة مـن صميـم قلـبي، وحقًّـا تمنيـتُ ذلـك.

★★★

في مسـاء ذلـك اليـوم بكيـتُ بحرقـة علـى فقدانهـا، وندمـتُ أنـني لمْ أخبرهـا..

لمَ ابتعـدتُ عنهـا، ولمَ لمْ تعـد تـروق لـي مثلمـا كانـت مـن قبـل؟! لعلهَـا حينئـذ كانـت وجَـدت لى عـذؤًا

انقطـع بعدئـذ تواصلنا..حتـى عـبر الهاتـف، وقـل انشـغالي بهـا، وبعـد فـترة طويلـة كنـتُ قـد تناسـيتها فيهـا !

ذكّرنـي صديقـي بهـا وهـو يخبرنـي بموعـد خطبتهـا، مـا جعـل كل ألم ونـدم وحـزن يعـود مـرة أخـرى، ومكثـتُ فـوق سـطح منزلـي أجهـش البـكاء، وأنـدم وأنـا أخـبر نفسـي بأنـه كان يمكنـني أن أتغاضـى عـن كل عيـب وشـيمة لمْ تـرق لـي فيهـا.

كانـت زهـرة، بـل كانـت أجمـل زهـرة في بسـتاني، ولكـن مـا فائـدة النـدم، لمْ يعـد لـه فائـدة!

بـدا واضحـاً أننـا افترقنـا، وأخـذ كل منـا سـبيلاً مختلفًـا، وليـس بمقدورنـا العـودة.

★★★

اعتقـدتُ أن مـا حـدث هـو نهايـة القصـة، ونهايـة الآلام معـه، ولكـن انبعثـتْ الآلامُ مـرة أخـرى، عندمـا أخبرنـي صديقـي بـأن زهرتـي تلك..قـد ماتـت..!!!

تأجـج قلـبي، واجتاحـه حـزن، وألم، وخـزي، وأسـى وشـوق، و...!

لن أجد كلمات تعبر، ولا أوراقا تكفي.

ومكثـتُ في غرفـتي متكـوراً علـى نفسـي، لا أدري أيـن أنـا مـن الوقـت، ولا كـم مكثـتُ وكـم سـأمكث..

فقد توقفت الساعات، وباتتْ غرفتي معتمة!

بينمـا أرمـق كل ذكـري بيننـا وهـي تنبعـثُ أمـام عيـنيّ مُجسـدة وكأنهـا حقيقـة.

إنهـا هـي تلك الجالسـة هناك وأنـا بجانبها أداعب جدائل شعرها..

وإنـه أنـا ذلـك المسـتلقي علـى ظهـره ورأسـه سـاكن فـوق إحـدى فخذيهـا أتطلـع إليهـا بعيـنيّ مبتسـماً وهـي تتلّمـس شـعري، أو تداعب شـفتاي بأناملهـا، أو تُهدهدنـي كالطفـل.

إنني هذا الذي يلوذ بين ذراعيها من سخط ونقم الحياة.

وآه من الحياة!!

ماتتْ ومتُ أنا بعدئذ ألف مرة، كل يوم وكل ساعة وكل دقيقة وثانية..

أموت وأبعث لتتجدد آلامي، ولا أزال أموت!

وكلما ثقل جسدي، وجثت قدمي، وران عليَّ الوسن، وأويتُ إلى فراشي؛ أشعر بذراعيها وهي تحتضنني، وقُبلاتها وهي تُختم فوق جبيني، قبل أن أغطَّ في نومي.

إنني أشعر بها، أشعر أنها امتزجت بي، إنها تسكن غرفتي، تراقبني، وتتابعني!

لهذا أكتب تلك الكلمات، بينما أدرك أن دموعي هذه التي تهوي..لن تغفر، ولن تشفع لي عند روحها التي تحوم حولي.

وتلك كانتْ قصتي مع زهرة، وأجمل زهرة، وأول زهرة هوتْ من بستان حياتي.

كيف أواسيكِ؟

جلستْ بجانب صديقها على أريكة خشبية بإحدى الحدائق، تفصح له عن سرها، وتشكو له همها وحزنها المكنونين في قلبها!

فأحاطها بذراعيه وضمها إليه، بينما ارتاحت ذقنه على رأسها التي غاصت بصدره، وأخذ يردد تلك الكلمات في خاطرة، في حين كانتْ تظنه صامتا:

كيف أواسيكِ وقلبي يقتسم معكِ الآلام؟!

وكيف أرضيكِ والأنين يتبدى في صوتك الحزين، ودموعك تسيل فوق قلبي كجذوات ملتهبة تثقبه فتجعله كغربال الدقيق.

لا أخشى من خفقان قلبي،

بقدر خشيتي من رؤية الدموع تدور في عينيكِ..

لا يمكنها الخروج ولا يمكنها الوُلوج..

دمعتكِ يا حبيبتي ترتعد لها القلوب.

آه يا حبيبتي..

لو أدري كيف أدوي لكِ الجراح،

لو أدري أين يكمن الدواء!

لجلبته لكِ وإن كان في أعماق الجحيم.

ولـو كان حـبي دواءك لانتزعـتُ قلـبي وقدمتـه لـكِ فـوق طبـق الإخـلاص،

ليضمد لكِ الجراح.

كـم أمقـت هـذه الحيـاة بسـحرها وجمالهـا عندمـا أجدهـا سـاخطة، ناقمـة عليـكِ.

آه يا حبيبتي لو أجد لكِ الدواء..

لكفكفـتُ بـه دموعـك المكبوتـة، لتعـود ابتسـامتك ترفـرف حولـي، وليعـود صوتـك الأصيـل.

صوتك الذي كان يشفي جراحي يوماً، أتوجسه اليوم حزينًا!

أمـا كلماتـي فقانتـة معـكِ في قفـص الأحـزان، فـلا بمقدورهـا أن تحـرركِ،

ولا يمكنها أن تواسيكِ.

صدقيـني، يعتليـني الحـزن لحزنـك، والهـم لهمـك، وكأن سـعادتي وحزنـي ممتزجـان بـكِ!

فسـعادتي تنبعـث عندمـا تسـعدين وحزنـي ينبعـث عندمـا تحـزنين، وآلامـي تنبعـث عندمـا تبكي.

لكـن لـن أسمـح لآلامـك بـأن تمكـث بداخلـك طويـلاً، وتعكـر صفـو عالمـك الجميـل.

سأذهب في رحلة إلى أرجاء العالم، لأبحث لكِ عن الدواء.

برهة !

برهة يا حبيبتي وسأعود لأشفيكِ.

وإن عدتُ فارغ اليدين..

سأسلم لكِ حياتي لتفعلي بها ما تريدين.

لازالتْ تجتاح أحلامي

كنـتُ جالسًـا أحـدق في شاشـة حاسـبي، عندمـا أتـتْ هـي مـن خلفـي وجلسـتْ فـوق مقعـد علـى يسـاري في هـدوء، ابتسـمتُ لوجههـا البشـوش، وضغطـتُ الـزر فانبعثـت أنغـام الموسـيقى.

التفتُّ إليهـا وأحطـتُ عنقهـا بذراعـي وحدقـتُ قليـلاً في خصـلات الشـعر الذهبيـة اللـون الـتي كانـت تحجـب عينيهـا وهـي تتطلـع إلـيّ.

خطفـتُ الخصـلات بـين أصابعـي ومـررت بهـم مـن فـوق وجنتيهـا حتـى أسـكنتهما خلـف أُذْنهـا.

ابتسـمتْ في خجـل واحمـرتْ وجنتاهـا، أخـذتُ أمـر بيـدي علـى وجنتيهـا حتـى غاصـتْ في راحـة يـدي.

برهـة وأبعـدتْ هـي يـدي في خجـل وضغطـتْ علـى نفـس الـزر فـإذا بأنغـام الموسـيقى تتوقف.

تذمرتُ وضغط الزر مرة أخرى،

فضحكتْ ضحكة مكتومة ساخرة.

ألتفتْ بجسدها فوق المقعد، ومن ثم استلقتْ على ظهرها وأسكنتْ رأسها فوق فخذي الأيسر، وأخذتْ ترمقني بعينيها الصغيرتين العسلية اللون.

فابتسمتُ لها ورحتُ أنفخ الهواء لأبعد الشعيرات الصغيرة عن جبينها، ثم وضعتُ قبلاتي عليه.

وضعتُ الكثير من القبلات، حتى أسدلتْ جفنيها ورفعتْ يديها وراحتْ تداعب شعري بأناملها.

وبغتة، وثبتْ برأسها للأعلى قليلاً وتعلقتْ بإحدى شفتي وراحتْ تعتصرها، فغرقتُ في رحيق شفتيها حتى أغمضتُ عيني، ولم أدر بشيء حولي.

***

استفقتُ من حلمي هذا على صوت زوجتي، تطلب مني النهوض لتناول الإفطار!

اعتدلتُ فوق فراشي، واحتجتُ برهة حتى أستوعب أنني كنتُ أحلم، ومكثتُ قليلاً في شرودي الذي أخرجني منه صوت طفلتي الصغيرة التي كانت تركض وتلهو خارج الغرفة.

غادرتُ الغرفة، وانضممتُ إلى المائدة مع زوجتي وطفلتي، أخذا يتناولان الطعام، في حين أراقبهما في تأمل وشرود، وكنتُ أعبث في الطعام بشوكتي كلما انتبهتْ زوجتي ونظرتْ لي في تعجب!

وبعد الانتهاء جلستُ أمام طفلتي التي تلهو، أتتطلع إليها من خلف دخان سيجارتي.

لقد انصرمتْ أعوم، بات لديّ فيها زوجة، وطفلة جميلة ذات عينين زرقاء مثل والدتها..

ومع ذلك لازالتْ تجتاح أحلامي..حبي الضائع!

حدقتُ في صورة أبي المعلقة على الحائط، وأنا أخاطبه في نفسي..

لا أدري أكان هذا إثمي أم إثمك يا أبي!

جئتك أخبرك عن حبي الوحيد، فسخطت عليَّ بصوتكَ الصاخب تنهاني عن معرفة تلك الفتاة، وأنك ستوافق على أي فتاة أخرى أشير إليها.

لمْ تأبه بألم ابنكَ الوحيد..

رفضتَ دون أن تُصغي حتى لدفاعي عنها،

إنه إثمك يا أبي..

وإثمي أيضاً!

فقد امتثلتُ لرغبتكَ،

لأني لمْ أعتد قط أن أقول لكَ لا..!

طفل الشارع

أخذ يتسكع في شوارع المدينة المزدحمة؛ كعادته كل يوم، وبعد وقت ليس بقليل، جلس يتشبع من رائحة شواء اللحم المنبعثة من أحد المطاعم، بينما يتطلع إلى المارة في تأمل.

تطلع لتلك السيدة وهي تربَّت فوق ظهر رضيعها النائم على كتفها الأيسر، وذلك الشاب الفارع الذي يطوق عنق صديقته بذراعه؛ تطلع إليه متفحصا ملابسه النظيفة، وحذاءه الأبيض الجميل، ثم عاد يتأمل نفسه، يتأمل ملابسه الباهتة، المتسخة، المرقعة، وحذاءه المقطوع!

هُنَيْهَة وعاد يتطلع إلى المارة مرة أخرى، خاصة ذلك السيد المحترم الذي يسير بجوار زوجته، وطفلتهما بينهما معلقة في كفيهما.

لطالما خيل إليه أن أحد المارة سيدنو منه يوماً ويربَّت على كتفة مُشفقًا قبل أن يطلب منه أن يصطحبه إلى منزله، ليترعرع مع أطفاله، أو حتى ليكون طفله الوحيد!

يطعمه، ويشتري له الملابس، ويُلحقه بالمدرسة ليتعلم تلك الأشياء التي كان يُصغي للأطفال وهم يتناقشونها في اهتمام.

وكان يـراوده حلماً عندمـا يغفـو قليـلا، أنـه بـاتَ رجـلاً لديـه عمـل مهـم وزوجـة جميلـة وأطفـال يلعبـون معـه في حديقـة المنـزل الكبـيرة.

ولقـد دنـا منـه أكثـر مـن شـخص خيـل إليـه وقتئـذ أن أحلامـه سـتتحقق، لكـن لا يلبـث أن يرتطـم في زيـف خيالاتـه عندمـا يضـع الشـخص في يديـه قطعـة معدنيـة ويرحـل!

ولقـد دنـتْ منـه سـيدة في الثلاثـين مـن عمرهـا، أيقـن أنهـا سـتصطحبه معهـا ولكنهـا أكتفـتْ بإعطائـه بعـض النقـود وحَبَّـة تفـاح مـن حقيبتهـا البلاسـتكية، ورحلـتْ! بعـد أن ربَّتـتْ علـى كتفـه في إشـفاق، مـا أثـار حنقـه، فألقـى بالنقـود بعيـداً، وكاد أن يلقـى بالتفاحـة هـي الأخـرى، لكنـة أبَـى أن يفعل..مُسـتحرماً!

فقد آمـن أن التفاحـة مـن خلـق الله، أمـا الأمـوال فمـن خلق البشـر!

وهو لا يملك شيئًا في الحياة سوى إيمانه.

وكان لديه يقين بأن الله سيعوضه يوماً عن كل معاناته.

تنهد بصوت مسموع، وهو يقول في نفسه:

- بالتأكيد سيعوضني.

ومـع أنـه تسـاءل ذات مـرة، لمَ قـدر الله لـه أن يكـون مـن أطفـال الشـوارع بـلا أب، ولا أم ولا حتـى مـأوى؟

فقـد واسـى نفسـه بكلمـات أحـد المشـايخ في صـلاة الجمعـة وهـو جالـس بجـوار المسـجد ينتظـر صدقـات المصلـين:

- لله حكمة فيما يقدره، لا يعلمها إلا هو.

كان قد تشبع من رائحة اللحم المشوي، فمضى يُكمل تسكعه في الشوارع، وبينما كان يتطلع إلى واجهات المتاجر الزجاجية، استوقفته لعبة معروضة أمام أحد متاجر الألعاب؛ حقيبة بيضاء بها أدوات تماثل أدوات الطبيب، لطالما حلم أن يصبح طبيبًا، يرتدي معطفًا أبيض؛ يُشفي البشر، وربما الحيوانات.

دلف يسأل البائع عن ثمنها، فأخذ البائع يرمقه في شفقة يشوبها شئ من التقزز.

- إنها غالية الثمن.

لكنه أخبره بثمنها بعد أن رجاه الطفل، غادر الطفل المتجر ينظر فيما يملكه من مال، فإذا به قليل..قليل جداً.

فأبتعد عازماً أن يجمع المال!

قصد بائع الأحذية الذي يلجأ إليه من وقت لآخر؛ ينظف له متجره، ويحضر له البضائع من مخزنه، ليعطيه المال، وقد أنجز عمله هذه المرة في وقت قصير حتى يتسنى له المرور على جميع المنازل التي كان يقصدها ليعطوه المال والطعام.

وفي الليل جلس أسفل سلم أحد المنازل يحسب أمواله التي جمعها، فقد اقترب كثيراً من إتمام ثمن اللعبة.

في ظهيرة اليوم التالي، وبعد أن أكتمل المبلغ بأكمله، بل زاد عليه بقليل، توجه نحو متجر الألعاب فرحاً.

★★★

فوجئ البائع عندما وضع الطفل له بعض الأوراق والعملات المعدنية على مكتبه الزجاجي:

– أريد تلك اللعبة التي سألتكَ عنها أمس.

تأمله البائع وقد انتابته الحيرة قبل أن يقول:

– آسف يا بني، فقد بيعت تلك اللعبة أمس.

ثم صمتَ يتأمل وجه الطفل المتقع، وعندما انتبه لترقرق الدموع في عينيه، أضاف مشيرا بإصبعه إلى داخل المتجر:

– انظر هناك ألعاب كثيرة، يمكنك انتقاء واحدة أخرى.

لمْ ينبس الطفل بكلمة، غادر المتجر مبتعداً وقد خيّم علية الحزن، ولمْ يكترث حتى بالبائع، الذي خرج خلفه سريعاً يناديه:

فقد نسى أمواله!

أسرع الطفل من خطواته حتى بدأ بالركض، والدموع تسيل من عينيه،

تسمر البائع أمام المتجر يراقبه في شيء من الوجوم، وهو يتعجب كيف لطفل فقير مثله أن يترك أمواله ويرحل؟

ولكن الطفل لمْ يكن ليأبه أبدًا بأمر المال..!

أنثى ساذجة

إنـني أنثـى سـاذجة، تلتقـط شِـباك حبـك دون عنـاء منـك، إنـني أنثـى خائنـة لنفسـي عندمـا أراك ترسـل مـلاكك ليقذفـني بسـهام حبـك، وأقـف أنـا واجمـة دون أي مقاومـة.

أنـني تلـك التعيسـة الـتي تسمح لهـا بالولـوج برهـة في قلبـك لتـذوق حنانـك، قبـل أن تلقـي بهـا مـرة أخـرى علـى شـاطئ النسـيان لتتشـبع من قسـوتك.

أنـني عبـدة لـك، تأمرهـا بالصـلاة كل يـوم، ثـم تكافئهـا بعذابـك القاسـي في جحيـم شـوقك.

إن العبـد يتمنـى أن يكـون حـرًّا، وأنـا الحـرة الـتي تنسـاق بإرادتهـا لتكـون عبداً.

يا لي من ساذجة،

تـرى بـكَ شـيطانًا عازمًـا علـى تحطيمهـا حـين يجتمـع بهـا، ومـع ذلـك تخضـع لأمـرك وتندفـع مسـرعة نحـو أشـواكك.

إنـني أشـعر بالأسـى لحالـي، وأنـا قانتـة جـوارِكَ بالعربـة، أدرك نوايـاك المدنسـة.

أعلم أنك لن تسمح لي أبداً بكسر كبريائك وعظمتك،

وتعلم أنتَ أنني لن أحاول أبدا فعل ذلك، فلقد روضتني جيداً منذ لقائنا الأول، والآن أنا مُسخرة لخدمتك، ولإشباع شهوتك.

وتعلم أيضا أنني لن أتردد عندما تأمرني بأن أنتزع عني ملابسي، وأسجد أسفل جسدك.

وبعد أن تتشبع مني..

ألملم ملابسي وأنا أطوي بها دموعي الممتزجة بسعادتي التي دامت برهة بين أحضانك وحزني الذي سيدوم بعد فراقك.

وأسألك إن كنتَ تُريد مني شيئا آخر، فتشيح بيديك وكأنك تقول لي..

اغربي عن وجهي!

فأغلق باب شقتكَ في هدوء، وأتحمل نفسيًا عناء نزول تلك السلالم التي ارتقيتها معكَ فرحة، أقفز بجانبك كطفلة صغيرة.

★★★

أتسكع قليلاً في شوارع المدينة، وأشتري ما أحتاجه وما لا أحتاجه!

وهدية جديدة لك لتضفيها بجانب هداياي السابقة التي قبعت في صندوقك القديم، الذي رأيته صدفة أسفل فراشك، في إحدى ليالينا..

— نعم هذه ستعجبه !

أضم هديتك إلى قلبي وأحرص عليها بعناية وأتأملها وأنا عائدة إلى منزلي..

أجلس بجانب شرفة غرفتي وأخبرها كم أحبك، كم أعشقك، كم أدمنك.

أتطلع إليها بعين دامعة، وأنا أتمنى أن تكون هيّ ممحاة دناسة ذكرياتي معك، وأن تبدل صورتي الساكنة في عقلك، وتخبرك بما حاولتُ أن أخبرك به طيلة الأعوام السابقة..

— إنني أحبك حقًّا، وأريد أن أكون حبيبتك، لستُ عاهرتك..!

وبعد أن أضع هديتك فوق نفس المنضدة التي وضعت عليها سابقتها أجلس على فراشي، وأبكي بحرقة وندم، على حبي لك إلى حد الإدمان، وأسبُّ نفسي وأنعت نفسي بالعاهرة، وربما ألطم وجهي عقاباً!

ومن ثم أتخذ قرارًا بألا ألقاك أو أخضع لك إلا عندما تخبرني بحبك، وعن مستقبل علاقتنا معاً..

يجب أن أغيب عنه، فنحن نحتاج أن نغيب أحياناً عن القلوب المريضة..لكي يتم شفاؤها.

— نعم إن لم يفعل فلن ألقاه مرة أخرى.

وأحفز نفسي وألصق بها صفات لستُ منها في شيء،

مثل الجسارة، والقوة، والكبرياء، قبل أن أخبئ رأسي أسفل الوسادة في محاولة للهرب من صخب أفكاري حتى أغطَّ في نومي.

***

وفي صبـاح اليـوم التالـي يبـدأ انتظـاري لومـض هاتفـي، برسـالة منـك تعـبر فيهـا عـن سـعادتك بوجـودي في حياتـك، كمـا كنـتَ تفعـل في ليالينــا الأولى.

أنتظرهـا ليلـة إثـر ليلـة، لكنـك لا تفعـل، فأفقـد الأمـل وأضـع أملـي علـى رسـالتك القادمـة الـتي تطلبـني فيهـا للقـاء جديـد!

ولكـن حتـى تلـك لا تأتـي، إلا إذا أرسـلت لـك عشـرات الرسـائل أخـبرك فيهـا بأنـي مشـتاقة لـك.

كم أمقت قلبي بشدة عندما يشتاق إليكَ..

يشتاق إلى مُعذبه!

وبعد عدة أيام يوقظني صوتك من نومي:

— أنا أسفل منزلكِ أنتظرك بالعربة، هل ستأتي؟

أتناسـى وعـدي لنفسـي، وأرتـدي ملابسـي في لهفـة وشـوق، وأنـزل السـلالم مسـرعة، أفتـح بـاب عربتـكَ وأجلـس بجـوارك باسمـة، فتنطلـق بالعربـة.

وتتكرر مُعاناتي معكَ...

أُيقن أنه سيأتي يوم أقص على الله مُعاناتي،

ليتدخل ويوقفها..

قبل أن أوقفها أنا بانتحاري..!

مهلاً!

كم أدين بالشكر لمن مر في حياتي مُسرع

دون أن يغرز خناجره في قلبي!

بائعة الليمون

في الصباح الباكر، استفاق الطفل من نومه، ودلف إلى المطبخ يبحث عن شيءٍ ليأكله، فتح الثلاجة ولمْ يجد شيئا، فدلف سريعًا إلى غرفة أمه ودنا من فراشها وأخذ يهز جسدها ليوقظها من نومها العميق الذي غَطَّتْ فيه منذ ساعات قليلةٍ من صخب الأفكار الذي أقلقها طوال الليل، فاستفاقتْ الأم فزعة تسأل الطفل:

- ما بكَ يا بني؟
- أمي، إنني جائع!

نهضت الأم من فوق الفراش تربَّت على كتف طفلها، وطلبت منه أن يهدأ ويلهو قليلاً بألعابه إلى أن تحضر له الطعام.

توجهتْ إلى المطبخ، وفتحتْ الثلاجة بعين ترقرقت فيها الدموع!

لمْ تجد شيئا يسد جوع ابنها، ولو حتى لقمة خبز جافة.

بحثتْ بتمعن في كل أرجاء المطبخ، حتى داخل الأدراج الخشبية، وعادتْ مرة أخرى تنظر داخل الثلاجة الفارغة..لا شيء!

وقفتْ في منتصف المطبخ وقد ران على وجهها الحزن، حائرة، عاجزة، وكأنها فوجئت بالأمر!

فقد كانت توقنُ منذ أمس أن المنزل فارغ تماماً من أي طعام، فهذا ما أقلقها طوال الليل تفكر، وما فعلته كان على أمل أن يكون نظرها قد خدعها، ولمْ تنتبه لوجود لقمة هنا أو هناك.

– أمي، إنني جائع!

أثقلتها كلمات ابنها المنبعثة من الغرفة المجاورة، فجثتْ على ركبتيها، تجهش بالبكاء، وهي تتساءل من أين لها أن تحضر الطعام؟!..هل تشتريه؟

وكيف تشتريه؟ تحتاج مالاً، ومن أين لها أن تأتي بالمال، فلمْ تعتدْ قط أن تدخر مالاً مما يعطيه لها زوجها، فقد كانتْ تشتري به احتياجات المنزل، ولا تطلب مالاً آخرَ إلا عندما ينفد الطعام.

ولكن أين زوجها الآن، فلقد هجرها منذ أيام بعد شجارهما الأخير، ليحيا هانئ البال مع زوجته الجديدة، الصغيرة، الجميلة كما أخبرها.

– من أين لي يا رب بالمال، طفلي جائع، وأنا حائرة، عاجزة عن فعل شيء؟!

أخذت تُكفكف دموعها التي ذُرفت، وهي تعتصر ذهنها بحثاً عن خلاص مما أسمته مصيبة.

وبعد هُنَيْهَة، راودتها فكرة أن تبيع شيئا، ولكن ما هو الشيء؟! كانتْ تأمل لو كان بحوزتها قطعة واحدة من ذهبها الذي أعطته

لزوجها منذ شهور، لتعاونه على سداد ديونه كما أخبرها.

– أي شيء يا رب؟!

وعندما كانتْ تجوب بعينيها هائمة، استقرت عيناها على علبة كرتون كانت قد وضعت فيها بعض الأشياء البلاستك والألمونيوم التي لمْ تكن تحتاجها.

نهضتْ من مجلسها، ودنت من العلبة تتفحص ما بها، قبل أن تعبث بكل الأدراج وتلتقط منها أشياء لتضيفها إلى العلبة الكرتون.

غسلتْ وجهها بالماء في عَجل، وارتدتْ عباءتها السوداء، وأحكمتْ حجابها بإتقان حول رأسها.

حملتْ العلبة الكرتون أعلى رأسها، وطلبتْ من ابنها أن يرافقها، فلمْ يرضَ قلبها أن تتركه وحده يئن من شدة الجوع.

★★★

وقفتْ أمام متجر الخردوات المغلق، بذهن هائم، وقد ازداد فوق حزنها..حزناً، وهماً.

كادتْ أن تبكي، لولا أنها تحاملتْ على نفسها، وحافظتْ على دموعها مكبوتة، وضعتْ العلبة الكرتون من فوق رأسها، وجلستْ بجوار طفلها تنتظر صاحب المتجر!

في حين أخذتْ تُشغل طفلها ببعض القصص، حتى ينسى جوعه، وظلا على هذا الحال ساعة أو أكثر بدقائق.

أتـى صاحـب المتجـر يفتـح بـاب متجـره، وهـو يتأملهـا مُتفحصـاً قبـل أن يـدرك أنهـا جـاءتْ لتبيـع شـيئا عندمـا زاغـت عينـاه علـى العلبـة الكرتـون.

كانـتْ قـد وقفـتْ حينئـذ وطلبـت منـه ذلـك بالفعـل، أخبرتـه بـأن معهـا بعـض الأشـياء الـتي تريـد بيعهـا.

★★★

أخـذتْ الأمـوال مـن البائـع راضيـة بمـا قـدره ثمنـا لتلـك الأشـياء، ومضـتْ تبتعـد وطفلهـا معلـق بيدهـا، وفي طريقهـا اشـترتْ بعـض الطعـام، الـذي سـدتْ بـه جـوع طفلهـا عندمـا عـادتْ إلى المنـزل.

نعـم أطعمتـه! ، لكـن الجـوع وحـش قـاسٍ، لـن يلبـث حتـى يؤجـج نـاره في أمعـاء الطفـل، هكـذا قالـتْ في نفسـها.

جلسـتْ فـوق مقعـد تفكـر، ومعهـا بعـض المـال، ولكـن هـل سـتقْدِمُ علـى بيـع أدوات وأثـاث منزلهـا؟

ولـو فعلـتْ، فسـيأتي وقـت تجـد نفسـها تقطـن منـزلًا بـلا أثـاث.

راودتهـا فكـرة أخـرى، لكنهـا تحتـاج مـالاً أكثـر ممـا تمسـك بـه بيديهـا!

نهضـتْ مـن فـوق مقعدهـا، وأخـذتْ تَجمـع بعـض الأشـياء في علبـة كرتـون أخـرى، أشـياء أثقـل وأكثـر قيمـة، وذهبـتْ بهـا لنفـس التاجـر، ولم تصطحـب طفلهـا معهـا هـذه المـرة.

باعـتْ الأشـياء وأخـذت المـال، وفي طريـق عودتهـا لجـأت لتلـك السـيدة العجـوز الـتي كانـتْ تشـتري منهـا مـا تحتاجـه مـن خضـروات وفاكهـة، جلسـتْ معهـا وقتـاً طويـلاً كان كافيـاً لتقـص عليهـا قصتهـا، وتخبرهـا برغبتهـا!

وقـد أشـفقتْ العجـوز علـى حالهـا فأعطتهـا سـلة مـن الليمـون نظـير نصـف الثمـن، علـى أن تُعطيهـا النصـف الآخـر بعـد بيعهـا.

حملـتْ السـلة، وأخـذتْ تجـوب الشـوارع وتمـر علـى البيـوت.. تبيـع الليمون.

ولقـد باعـتْ كل مـا في حوزتهـا قبـل أن يظلـم الليـل، وعـادتْ بعدئـذ للعجـوز، أعطتهـا باقـي الثمـن، واتفقـتْ معهـا علـى صفقـة جديـدة للغـد!

عـادتْ إلى منزلهـا بقلـب مفعـم بالبهجـة، وحملـتْ طفلهـا الـذي كان قـد نـام علـى الأرض بجـوار ألعابـه، وضمتـه إلى صدرهـا وغَطَّـتْ في نـوم عميـق.

وفي الصبـاح الباكـر، وبعـد أن أطعمـتْ طفلهـا وتركتـه يلهـو، ذهبـتْ إلى البائعـة العجـوز، وحملـتْ سـلة الليمـون، وانطلقـت تجـوب طرقات جديدة!

ومنذ هذه اللحظة باتتْ (بائعة الليمون).

ألحقـتْ ابنهـا بالمدرسـة، وترعـرع ابنهـا حتـى بـاتَ شـاباً وحمـل عنهـا عنـاء العمـل، وخـلال هـذه الأعـوام لمْ يظهـر زوجهـا قـط!

كانا قد نسيا وجوده بالفعل..!!

قبلة مُفتعلة

وماتَ الحبُّ عند أول قبلة!

قبلة مفتعلة..كاذبة.

وكسرت الزجاج الأبيض الشفاف، بأناملها الخادعة، ولكن العيبُ عيبي لأني صدقتُ كذبتها وقبلتُ لعبتها ودخلتُ في معركتها، وتصارعتُ مع حياتي من أجل وهم أسميتهُ أحلامي.

ولهذا انهزمتُ ومن ذاكَ الذي لا ينهزم أمام الحياة؟

أتذكر كلماتها لي قبل المعركة..قبل اللعبة!

همستْ في أذني..

— افعلها!..افعلها من أجلي؟

نظرتُ إلى السماء الزرقاء وتساءلتُ:

— لِمَ عليَّ أن أفعل؟

رد علـيَّ صوتهـا ذو الـدلال المفتعـل الـذي كان لا يـزال يهمـس في أذنــي:

— لقد فعلتها قبلا من أجلك..ولا زلتُ أفعلها؟

فأسـدلتُ جفـنيّ فـوق عيـنيّ وتأملـتُ الظـلام الدامس،رأيـتُ نفسـي معهـا بجـوار نهـرٍ مـن المـاءِ العـذب النقـي، وبداخـلِـهِ يتـلألأ اللؤلـؤ.

رفعـتُ الجفـون مـن فـوق عيـنيّ ونظـرتُ إلى الحيـاة وهـي تقـف بداخـل الحلبـة تنتظرنــي!

فنزعتُ عباءة الخوف ولمْ أدرك أنني أنزع معها عباءة الحكمة!

وانقضضـتُ علـى الحيـاة أصارعهـا، أخـذتُ أصـارع بـكل قوتـي، أمـا هـي فرقـدتْ علـى عرشـها تراقبـني مبتسـمة.

وعندمـا كـدتُ أن أُهـزم، نظـرتُ إليهـا ألتمـس تشـجيعها لأهـزم الحيـاة، وبـدا لـي أنهـا تـدرك مـا أحتاجـه، فطـارتْ في الهـواء واقتربـتْ برأسـها مـني والتقطـتْ شـفتاها شـفتي وقبلتـني، وحينئـذ أدركـتُ كذبتهـا..

أدركتُ خدعتها!

حدقتُ فيها بعين جاحظة وهي تعود إلى عرشها..

لقد خُدعت!

مكثـتُ مكانـي واجمًـا برهـة وأنـا أدرك تلـك الحقيقـة، وتمنيـتُ لـو أنهـا قبلتـني قبـل المعركـة، لكنـتُ اكتشـفتُ خدعتهـا.

حينئذ توجستُ صوت أقدام الحياة تتسارع نحوي..

ماذا ! !

لقد نسيتُ أنني في معركة !

التفـتُّ سـريعاً للحيـاة، ولكـن كانـتْ قـد طعنتـني بخنجرهـا قبـل أن أدرك صورتهـا، فهويـتُ علـى الأرض تسـيل الدمـاء مـني.

وابتسمتْ هي..الكاذبة، وابتسمتُ أنا..المهزوم.

وأُسدل الستار على مسرحية بطلتها خادعة، وبطلها ساذج.

جسد لا يعرف الحب

التصقت شفتانا كما التصق قبلها جسدانا، وغرق جسدي بين ذراعيها، قبل أن أطوق عنقها بذراعيّ، بينما أضع قبلاتي أسفل شحمة أذنها ألتمس النشوة، والسعادة تُلقي برحيقها عليَّ.

مكثتُ في نشوتي هُنَيْهة..

وبغتة، كُبِّل ذراعاى وجحظتْ عيناى، وامتقع وجهي، وشعرتُ بهزع الوجود من حولي!

تأجج قلبي وتوجستُ أنينهُ، وأخذ فمي يلفظ طعم السعادة الكاذبة التي تجرعتها باسم الحب، باسم السراب.

سراب رمقته بعيداً يرسم على الجبال بحوراً..

فتشبثتُ به، وأمضيتُ أدنو منهُ، حتى هويتُ بإرادتي بداخله، فإذا به حجر قاسٍ، ينقش جروح الخداع وثقوب الكذب فوق جسدي.

هوتْ قطرات من عينيّ، قطرات ملتهبة من الألم ومفعمة بالأسى على حالي.

أهذه هي الحقيقة؟

أكتشف أن كل هذا مجرد سراب!

وعندما شعرتْ هيّ بحرارة قطراتي التي اخترقتْ عنقها، مالتْ برأسها للخلف قليلاً تسألني..

– ما بكَ؟

حدقتُ في عينيها، فكُشف لي عن عدسة لا ترى من الناس سوى أجسادها.

عدسة اختزلتْ كل معاني الحب والعشق في نشوة جسد،

ورغبة حيوان..

جسد لا يعرف الحبَّ!

– ما بكَ؟

أعادتْ سؤالها، ولكني لمْ أنبس بكلمة من فعل الوجوم الذي خيّم على وجهي.

ضمتني إليها وأخذتْ تواسيني بشفتيها وتضع قبلات حارة فوق وجنتيّ، ولكن قد فات الأوان فقد كشفتُ لثام الكذب عن نواياها القذرة، عن سماجة شفتيها، وفظاظة قلبها الأسود، وفحيح كذبها.

تخلصتُ من بين ذراعيها، ودفعتُ جسدها بعيداً، بينما تصلب جسدي كالجماد.

اعتدلـتْ في مجلسـها ترمقـني في حـيرة، فالتفـتُّ برأسـي إلى الجانب الآخـر لابتعـد بنظـري عنهـا، فنهضـتْ وأخـذتْ تلملـم ملابسـها، ومـن ثـم قالتْ:

– وداعاً.

لمْ تمكـث إلا قليـلًا حتـى غـادرتْ الشـقة، ودوى صـوت إغـلاق البـاب، قبـل أن يخيّـم الصمـتُ مـرة أخـرى، وأنـا متصلـب بعـين جاحظـة تتسـاقط منهـا القطـرات، فتبلـل أشـلاء الفـراش.

وبغتة أجهشتُ بالبكاء!

شهور، أعوام، قرون..!

مرتْ مليون عام على حزني في ساعات قليلة.

ومن ثم ابتسمتُ!

وكأنني لمْ أبتسم قبلا، وقلتُ في قرار نفسي:

لقد تعلمتُ درسًا للحياة.

العنكبوت

جلس هو وصديقه فوق مقعدين من مقاعد المقهى مواجهين لشاشة العرض، حتى يتسنى لصديقه متابعة المباراة، أما هو فأخذ يجوب بعينيه مُتأملاً ما حوله.

جاء طفل صغير يتسم بشعر مُجعد وبشرة شديدة السمرة، وسألهم عن مطلبهم، طلب صديقه عصير الليمون مع الشيشة كعادته عندما يجلس في أي مقهى، أما هو فطلب فنجانًا من القهوة واكتفى بسجائره.

★★★

أشعل سيجارته وأخذ يتصفح مجلته العلمية بينما كان يرتشف رشفة من فنجان القهوة من وقت لأخر.

ضايقه خبر أن هناك عالِمًا يُجري أبحاثًا على النباتاتْ ليتأكد إن كانت تشعر بما حولها...وتتألم!

فقد كان يُحب الحيوانات، ويعتبرها عائلته، ولقد تأكد من ذلك عندما قرأ عن نظرية التطور وآمن بها.

لـذا لطالمـا أمتنـع عـن أذيتهـا بـأي شـكل، حتـى أنـه كان يأبَـى أن يُقلـب الصفحـة قبـل أن تمـر النملـة مـن فوقهـا، وتجنـب أكل اللحـوم منـذُ صغـره، ممـا كان يُثـير حفيظـة أمـه، ولقـد وبختـه أكثـر مـن مـرة علـى ذلـك، خاصـة أنهـا كانـتْ تـرى التذمـر يعتلـي وجهـه عندمـا تضـع طبقـاً مـن اللحـم أو البيـض علـى المائـدة، وخاصـة البيـض، فـكان يعتقـد أن البيـض جنـين سُـرق مـن أمـه!

ولقـد ناقشـته وجادلتـه، ولكـن لمْ تلبـث أن سـئمتْ تلـك المجادلات واعتـادتْ الأمـر، حتـى أنـه تحـول الأمـر إلى مُزحـة، عندمـا كانـتْ تمد قطعـة مـن اللحـم نحـو فمـه بغيـة ممازحتـه.

أغلق المجلة، خشية أن يقرأ ما لا يريده.

فأكثـر مـا يخشـاه النباتيـون، أن يخـرج عليهـم أحـد العلمـاء بدليـل يُؤكـد بـأن النباتـات تتـألم، حينئـذ لا مفـر مـن الانتحـار!

***

بـدأت المبـاراة وأخـذ الجميـع يتابعهـا في اهتمـام، باسـتثنائه هـو، فلـمْ يكـن يكـترث للمباريـات قـط، أخـذ يتطلـع إلى مـا خـارج الشـرفة الكبـيرة، قبـل أن ينتبـه إلى العنكبـوت الذي كان ينسـج خيوطه في زاوية الشـرفة، وبـدا أنـه قـد شـرع في نسـجها مُنـذ برهـة، ولقـد ابتهـج لذلك فلـمْ يتسـنى لـه يومـاً مراقبـة مثـل هـذا الأمـر، أخـذ يتأملـه باهتمـام.

كان صديقة لا زال يُتابع المباراة، فقال له:

— انتبه لهذا العنكبوت؟

التفـت لـه صديقـه، ومـن ثم أخـذ يجـوب بعينـة بحثـاً عنـه، قبـل

أن يُشير هو إلى زاوية الشرفة، فأنتبه للعنكبوت وأخذ يتأمله برهة قبل أن يعود وينظر إليه، ويقول..

– عندما تتأمل في مُخلوقات الله ترى العجب.

قالها وعاد يتابع المباراة.

★★★

هُنَيْهَة، وأتى الطفل الذي يعمل في المقهى، وبدا أنه انتبه هو الآخر للعنكبوت، دنا من الشرفة واستند بجانبه الأيمن على الحائط، يتأمل العنكبوت، في حين أخذ هو يراقب الطفل في اهتمام.

وبغتة، رفع الطفل يديه والتقط العنكبوت في حركة سريعة، وأخذ يعتصره بين أصابعه في قبضة قوية قبل أن يرخي قبضته ويتأمله وهو ميت في راحة يديه ومن ثم يُلقي به من الشرفة!

في حين كان هو واجم أمام ذلك المشهد، وقد أخذ وقتًا ليس بقليل ليدرك ما حدث قبل أن ينهض ساخطاً عازمًا على توبيخ الطفل، وكاد أن يفعل، ولكن خالجهُ صوت الموجودين وهم ينهضون مهللين..

– جووووووووول!

تطلع إليهم برهة مُتأملاً، قبل أن يعود ويجلس مرة أخرى ويقول مخاطبا صديقه وقد ارتسم على وجهة ابتسامة ساخرة:

– عَبث..!

التفتَ له صديقه يرمقه في تعجب، وبدا أنه لمْ يفهم مقصده:

فعاد يُتابع المباراة!

الرفيق

سألتها:

– أهكذا يكون الحبُّ؟

دنتْ مني وهمستْ في أذني..

– نعم إنه الحبُّ.

وسألتها:

– كيف يبقى الحب دون بقاء روحي في داخلي؟

أجابتْ:

– لا تحتاجُ لروحك وأنتَ معي.

– إذا ماذا أحتاجُ؟

– تحتاجُ إليّ، أتحبني كما أحبك؟

أجبتها قائلا:

– انظري لتلك السماء ألمْ تتحول إلى الأزرق بفعل حبي لكِ؟

قالتْ :

— أعطني قلبك.

سألتها :

— وكيف أعيش بدونِه؟

أجابت :

— أنتَ لا تحتاج له ، فأنا قلبك.

سلمته لها ، فردتْ عليَّ بقلبها ، فسألتُ قلبها إن كان يُحبني ، فوثب من راحة يدي ودلفَ إلى تجويف قلبي وسكنهُ ، ووضعتُ كفي عليه كدرع لحمايتهُ ، فابتسمتْ لي ومضتْ تبتعدُ ، رمقتها وهي ممسكة بقلبي بين راحة يديها ، فأسرعتُ إليها وعندما بلغتُها أخذتُ أسير بجانبها ، فدنونا من بحيرة صغيرة يتلألأ بها اللؤلؤ ، رفعتْ قلبي عالياً نحو الشمسُ وهي تغرب ، ونظرتْ لي وقالت..

— والآن سأعلم إن كنتَ تحبني !

وضعتْ قلبي في مياه البحيرة ، فلمْ تلبث المياه حتى شكلت صورتها ، فأخذتْ ترمق صورتها في شيء من السعادة ، والتقطته من المياه ووضعته في تجويف قلبها ومن ثم احتضنتني في قوة ، وهي تهمس في أذني :

— أتحبني؟

أجبتها :

— أمازلتِ تسألين؟

– بل أريد أن أسمعها منك.

وضعــتُ يــدي علــى مؤخــرة عنقهــا فاستشــعرت حرارتهــا وأنــا أجيبهــا :

– أحبك.

فتــلألأت عيناهــا مــن وراء الدمــع ، وأســدلتْ جفنيهــا واحمــرتْ وجنتاهــا خجــلاً وغاصــتْ بــين ذراعــيّ وقالتهــا :

– أنا أيضا أحبك.

وبغتــة ، ضغطــتْ بذراعيهــا حولــي وهــوتْ بــي في البحــيرة، فغصــتُ بجســدي معهــا برهــة قبــل أن نعــود للأعلــى مــرة أخــرى في حــين أخــذتْ هــي تضحــك وترشــني بالميــاه.

أســدل الليــل ســدوله وأخــذ اللؤلــؤ يتــلألأ علــى ضــوء البــدرُ، والفراشــاتْ تلتــف حولنــا ، كانــتْ تداعــب إحداهــنّ بأناملهــا ، في حــين أخــذتُ أحيطهــا بذراعــيّ وأضمهــا إلــيّ ، وألتــفُ بهــا مــع دوران الفراشــات حولنــا ، وأنــا أحــدقُ في عينيهــا الذهبيــة اللــون..

حتي ذابتْ أجسادنا في أعماق الحب.

***

اســتفقتُ مــن شــرودي علــى وخــز (المحصــل) في كتفــي ، يطلــب التذاكــر ، فالتقطــتُ الثلاثــة مــن جيــبي وناولتهــا لــه ، فتأملهــم برهــة ومــن ثــم أعادهــم إلــيَّ ورحــل.

عـدتُ أسـتند برأسـي مـرة أخـرى علـى زجـاج نافـذة القطـار وأنـا أتأملهـا نائمـةً بـين ذراع صديقـي تتلمـس الـدفء!

ابتسمتُ وأنا أتذكر الخيالات التي راودتني منذ قليل.

لطالما أحببتها بشدة ولكن لمْ أتجاسر قط على الإفصاح لها عن حبي، وقد كنتُ أقرب أصدقائها، أرافقها إلى كل مكان تذهب إليه، وأجلس أُصغي لهمومها ومشكلاتها، وأعاونها على الخروج منها، وقد عرَّفتها على صديقي هذا يوماً.

فجاءتني بعدئذ بأشهر تخبرني بحبها له، وتطلب مني أن أنبهه لهذا، وقد امتثلتُ لها وأخبرته بدموع مكبوتة عن حبها.

وها هي تحيا في سعادتها التي اختارتها، في حين لازلتُ أنا الصديق الوفي الذي يرافقها إلى أي مكان تذهب إليه!

مهلاً!

الحب صورة منقوشة في تجويف قلوبنا ،

وليستْ كلمة يخطها قلم رصاص لكِ تُمحى !

الأزرق كله عشق

سـرنا معًـا بالطريـق، بعـد أن رفضـتْ أن نجلـس على إحـدى المقاهي نرتشـف شـراباً، كنـتُ قـد تعرفـتُ عليهـا عـن طريـق الانترنـتْ منـذ أكثـر مـن عامـين، توطـدتْ فيهمـا علاقتنـا إلى حـد الإفصـاح بالحـب، ولقـد حددنـا موعـدًا للقائنـا هـذا، ومـع أنـني سمعـتُ صوتهـا كثـيرا عـبر الهاتـف، إلا أنـه بـدا أكثـر دفئـاً وأكثـر رقـة!

كانـتْ تسـير هادئـة مُتأخـرة عـني بخطـوات، فقـد أخبرتـني بأنـه لا يـروق لهـا أن تسـير بجانـب ولـد!، ولقـد امتثلـتُ لرغبتهـا وسـيرتُ أمامهـا وكنـتُ أتلفـتُ خلفـي مـن حـين لأخـر لأتأكـد مـن أنهـا قريبـة، وبمقدورهـا سماعـي، قلـتُ لهـا معلقـاً علـى ملابسـها:

- أحب اللون الأزرق.

فمازحتني قائلة:

- لو كنتُ أدري، ما ارتديته اليوم.

نظرتُ لها في تذمر، فأضافتْ:

- أنا أيضا أحبه.

– وأي من درجاته تفضلين؟

– كل درجاته، فالأزرق كله عشق!

وجف قلبي بشدة عندما قالتْ عبارتها هذه، لطالما بحثتُ عن كلمات أصف بها اللون الأزرق..حقا إن الأزرقَ عشقٌ.

استوقفتني، فوقفتُ واستدرتُ مُتسائلا:

– ماذا؟

– نسيتُ أن أخبرك بشيء مهم!

– وما هو؟

– أحضرتُ لكَ هديه.

ابتسمتُ فرحاً كالطفل الصغير وأنا أسألها في شغف:

– أين هيّ؟

– دعنا نتخذ ساتر لنتوارى عن أنظار المارة، فلن أعطيها لكَ في منتصف الطريق!

أخذتُ أحوم بعينيّ متأملاً المكان حولي:

– حسنا ما رأيك بهذا المكان؟

ذهبنا إلى جانب الطريق، ووقفتُ أمامها أراقبها وهي تفتح حقيبتها وتدس يديها بالداخل، وعندما أخرجتْ الهدية، هوى هاتفها من الحقيبة ومعه بعض المناديل الورقية، فانحنيتُ وناولتها هاتفها، وأخذتُ أجمع بعض المناديل المبعثرة، قبل أن تمنعني:

– لا ، لا..لا يهم.

فألقيتُ المناديل التي جمعتها ، وقد اجتاحني الخجل ، وشعرتُ بسذاجتي ، فقد كنتُ أنوي جمع مناديل ورقية..بالتأكيد تلوثت من الأرض !

استقمتُ مرة أخرى والتقطتُ هديتي في شيء من الارتباك ، حتى أنني تلعثمتُ وأنا أشكرها ، ولقد انتبهتُ لاحمرار وجنتيها ، وبدا أن كل منا ليس بمقدوره أن يضيف كلمة أخرى.

أومأتُ لها أن نستكمل طريقنا.

استرسلنا نتبادل الحديث في مواضيع شتى لكنها تتمحور عنا ، عن حياتنا..علاقتنا.

كنا قد اقتربنا من ناصية الطريق ، وعندما انتبهتُ لصمتها ، استدرتُ لأتأكد أنها خلفي ، فإذا بها منحنية تمسك بطرف حذائها ويبدة أنها تعثرتْ في أحد الأحجار !

ضحكتُ ضحكة مكتومة ساخرة وافتعلتُ انشغال عينيَّ بالمارة قبل أن تعتدل وتدنو مني مطأطئة رأسها من شدة الخجل.

سارتْ بجواري بضع خطوات وعندما بلغنا ناصية الطريق ، استوقفتني ، وصمتتْ برهة قبل أن تقول :

– حسنا ، عليكَ العودة.

كانتْ قريبة مني حينئذ ، فأُتيح لي أن أتأمل قسماتِ وجهها ، ومع أنني تأملتُ العديد من الصور التي أرسلتها إليَّ عن طريق الانترنت إلا أنها بدتْ أكثر جمالاً !

كانـتْ هـي الأخـرى رافعـة رأسـها قليـلا تتطلـع إلـيَّ نظـرة فاحصـة – سـألتها لاحقـاً عـبر الهاتـف عـن سـر تلـكَ النظـرة، فأخبرتـني أنهـا كانـتْ تستكشـف لـون عينيّ! ،

كنــتُ لازلــتُ أقــف أمامهــا أتأملهــا شــارداً، فأخرجتــني مــن شــرودي بســؤالها:

– ما بكَ.

– لا شيء.

– حسنا، إلى اللقاء!

وعندما كانت تتأهب للرحيل، سألتها..

– هل سنلتقي ثانيةً؟

فابتسـمتْ وألقـت ذلـك علـى مشـيئة الله، وأخـذتْ تبتعـد، في حـين مكثـتُ مكانـي أتابعهـا بعيـنيَّ حتـى اختفـتْ بـين المارة.

تأملتُ ساعة هاتفي، فأمامي طريق سفر طويل لأعود إلى منزلي.

في مقعـد الحافلـة أخـذتُ أسـترجع كل مـا حـدث، وأنـا أتسـاءل إن كنـتُ أروق لهـا كمـا راقـتْ لـي، ولقـد ظفـرتُ بإجابـتي عندمـا اتصلـتْ تطمئـن علـى وصولـي في منتصـف الطريـق.

★★★

مـر عـام أو أكثـر كنـا نتواصـل فيهـا عـبر الهاتـف والإنترنـت، قبـل أن نلتقـي مـرة أخـرى.

وقفتُ أحدق في شاشة هاتفي بعد أن أغلقتُ المكالمة معها التي كانتْ تخبرني فيها أنها ستصل بعد قليل، مرت عشر دقائق، أخذتُ أتطلع إلى المارة حتى انتبهتُ إليها تدنو مني باسمة، مُتدثرة في معطف أزرق بأزرار سوداء مغلقة، وعندما بلغتني رحبتْ بي دون أن تمد يديها لتصافحني، ولم أمد يدي أنا الآخر، فأنا أعلم مقدار تحفظها في مثل هذه الأمور حتى لو بدتْ بسيطة بالنسبة لي:

– الجو شديد البرودة لديكم؟

– نعم، لِمَ لمْ ترتد ملابس ثقيلة؟

– إنه حار لدينا.

– على أي حال لن أعطيكَ معطفي.

– ما كنتُ لأطلبه منكِ، مع أنه يروق لي بشدة.

– أعلم لِمَ يروق لكَ.

ابتسمتُ لها قبل أن أومئ لها بالتحرك، وعلى غرار لقائنا الأول تأخرتْ ببضع خطوات.

كنا نسير هذه المرة صامتين، ربما نتفوه بكلمه أو كلمتين ونصمت، في حين كنتُ أرفع رأسي وأرمق الغيوم التي تراكمت في السماء، قبل أن تقول:

– أتدري أنكَ أخطأتْ؟

حينئذ بدأتْ الأمطار تهوي من السماء وتزداد شيئًا فشيئًا، فوقفتُ واستوقفتها، وأنا أحوم بعينيّ بحثا عن ملجأ نختبئ به

مـن الأمطـار، أشـرتُ بيـدي نحـو مـكان بجانـب الطريـق، فلجأنـا إليـه، لمْ أجـب عـن سـؤالها مـع أنـني كنـتُ أعلـم مقصدهـا، فلقـد تعرفـتُ علـى إحـدى الفتيـات وتقربـتْ منهـا بشـكل أثـار حفيظتهـا، فطلبـتْ مـني أن أبتعـد عنهـا وإلا ابتعـدتْ هـي عـني، ولمْ ترضهـا كلماتـي عندمـا أخبرتهـا بحبهـا المكنـون في قلـبي وإخلاصـي لهـا، وأن علاقـتي بـأي فتـاة أخـرى لـن تتعـدى الصداقـة البريئـة، لكنهـا تذمـرتْ وأخبرتـني أنهـا لا تثـق في مثـل هـذه العلاقـات، وربمـا مـع الوقـت تتحـول صداقـتي مـع إحداهـنّ إلى حـب!

هكـذا المـرأة دائمـا، تظـن أن بمقـدور الرجـل أن يُفـرغ قلبـه لتسـكنهُ امـرأة أخـرى، وربمـا تظـن أن بمقـدوره أن يُسـكن كلتيهمـا معـا! وتسـتدل علـى ذلـك أن هنـاك مـن يتـزوج أكثـر مـن واحـدة! مـع أن القلـوب لا تُقسـم.

وقفـتْ بجـواري تنفـخ في قفازيهـا، وكنـتُ أنـا شـارد أرمـق المطـر والعربـات الـتي تمـر أمامـي وأتابـع إطاراتهـا الـتي تلتـف حولهـا الميـاه فتتنـاثـر وكأنهـا نافـورة جانبيـة، وذلـكَ الطفـل الـذي يمـد ذراعـاه مـن النافـذة وهـو باسـط كفيـه ليلتقـط قطـرات المطـر بيمنـا يقبـض أصابعـه فـوق راحـة يديـه ويرخيهـا وكأنمـا يحـاول أن يمسـك بهـا. قالـتْ..

- لمْ تُجيبني..هل تظن أنكَ مُخطئ؟

- لا أدري عمَّ تتحدثين.

- عـن أنـكَ لمْ تحترم وجـودي في حياتك، تصادق هـذه، وتمازح تلك!

تنهـدتُ وأنـا ألتفـتْ لهـا برأسـي أرمقهـا وقـد بـدا في عينيهـا السـخط الـذي كان يـزداد شـيئاً فشـيئاً مـن كلماتـي وأنـا أجيـب:

- قلتُ لكِ قبلا إنني أحبك، ولا يسكن ولن يسكن في قلبي سواكِ، كل ما في الأمر أنكِ تُحملين الأمور أكثر من حقها، وكل ما فعلته، فعلته بنوايا حسنة، وهنّ كما قلتُ لكِ لسنّ سوى صديقات وزملاء في الجامعة.

- ليس بمقدورك أن تصادقهنّ، بهذه البساطة!

سألتها مُستنكراً وأنا أبسط ذراعيَّ مُتعجباً..

- لمَ؟

- لأني في حياتك.

- أنتِ لستِ في حياتي فقط، أنتِ حياتي ذاتها، لكن صداقاتي معهنّ مُجرد صداقة طبيعية، مثل مصادقتي لأي صديق آخر.

ذكرتُ لها بعض من أسماء أصدقائي الذكور، فعلا صوتها في شيء من التذمر..

- هذا مختلف، هؤلاء ذكور، وهنّ فتياتٌ.

فعلا صوتي أكثر وأنا أقول لها:

- انظري، إن كنتِ تُريدين التشاجر فأنا...

قاطعتني في حنق:

- أنا لا أريد التشاجر، كُل ما أردته منكَ هو احترام وجودي ورغبتي، وأنا لا أقبل وجود أخريات في حياتك مهما كان نوع علاقتك بهنّ، وإن كنتَ تريد بقائي، يجب أن تحترم رغبتي، وتمتثل لها!

كانـت الأمطـار قـد توقفـتْ، وانتبهـتُ إلى رجـل مسـن مُطـل مـن شـرفة شـقته يراقبنـا في تأمـل، وبـدا أنـه يُصغـي لحديثنـا منـذ وقـت طويـل، وربمـا منـذ البدايـة، فطلبـتُ منهـا أن نسـتكمل طريقنـا.

بعـد هُنَيْهَـة وبينمـا أسـير أمامهـا التفـتُّ برأسـي أنظـر إليهـا، كانـتْ قابضـة علـى منديـل ورقـي؛لمْ يكـن بحوزتهـا عندمـا كنـا واقفـين، وخيـل إلـيَّ أنهـا بكـتْ وأخرجـتْ المنديـل مـن حقيبتهـا لتجفـف دموعهـا، تنهـدتُ بقـوة ووقفـتُ، فوقفـتْ وأخـذتْ تصغـي لاعتـذاري:

— حسـنًا، أعلـم أنـني كنـتُ فظًّـا في كلماتـي، وأعتـذر عـن ذلـك، وسـأمتثل لرغبتـك، وسـأتجنب لقـاء أي منهـنّ، ولـن أصـادق أي فتـاة أخـرى.

فأشرق وجهها ثم ازداد إشراقاً وأنا أضيف أسأل:

— هل صفحتي عني؟

فأجابتني ممازحة وهي تتأهب للتحرك:

— أنتَ أحمق، لكني صفحتُ عنكَ.

فضحكـتُ لمزحتهـا وأكملـتُ الطريـق معهـا حتـى بلغنـا ناصيتـه، وافترقنـا كمـا حـدث في المـرة السـابقة.

★★★

كانـتْ أيامنـا بعدئـذ تمضـي هادئـة مُفعمـة بالبهجـة، حتـى انبعـث الخـلاف بيننـا مـرة أخـرى، ولكـن هـذه المـرة كان أكثـر جديـة، فقـد تعرفـتُ علـى زميلـة جديـدة لـي توطـدتْ علاقـتي بهـا أكثـر مـن أي

فتـاة أخـرى، حـد الإفشـاء بالأسـرار، وكانـتْ تصطحبـني وأصطحبهـا إلى أي مـكان نذهـب إليـه!

في بـادئ الأمـر خشـيتُ أن أخبرهـا عـن أمـر تلـكَ الفتـاة، بالتأكيـد لـن تتفهـم الأمـر، ولكنـني لمـا تذكـرتُ وعـدي لهـا يومـاً بأنـي لـن أخبـئ عنهـا شـيئا أبـدًا وخزنـي ضمـيري، فاتصلـتُ بهـا وأنـا عـازم علـى إخبارهـا، وبعـد إخبارهـا، قلـتُ:

— صدقيني، إنها مُجرد أخت لي.

صمتـتْ مليًّـا قبـل أن تنهـي المكالمـة في اقتضـاب، حاولـتُ أن أتصـل بهـا، لكنهـا أبـت أن تجيـب علـى اتصالـي، فانتظـرتُ أن تهـدأ، بالتأكيـد لـن يسـوء الأمـر فأنـا أعلـم مقـدار حبهـا لـي!

وفي يـوم فتحـتُ بريـدي الإلكترونـي لأجـد رسـالة منهـا تخبرنـي فيهـا بأنـه ليـس بمقدورهـا الغفـران هـذه المـرة لـذا قـررتْ الرحيـل!

حقاً؟!

مكثـتُ أيامًـا بلياليهـا أنتظـر إجابـة علـى رسـائلي الـتي كنـتُ أرسـلها عـبر الإنترنـت أو الهاتـف علـى أمـل أن تتقبـل اعتـذاري!

لمْ تجب!

ولكـني لمْ أستسـلم لليـأس والقنـوط، كنـتُ أعلـم البريـد الإلكترونـي لإحـدى صديقاتهـا، فتواصلـتْ معهـا وأخبرتهـا بـكل شـيء، وكـم أنـدم علـى فعلـتي ورجوتهـا أن تصلـح الأمـور بيننـا.

مضـى يومـان، وإذا بهـا ترسـل رسـائل سـاخطة، ناقمـة، لمْ اعتدهـا منهـا قبـلاً، تلومـني فيهـا علـى إدخـال صديقتهـا في الأمـر، في حـين

اجتاحـني الوجـوم وأنـا أقـرأ كلماتهـا القاسـية!

أرسلتُ لها:

– كانـتْ صديقتـكِ آخـر أمـل لـي، فأنـتِ لمْ تـردي علـى رسـائلي، وأنـا أحبـك وليـس بمقـدوري الحيـاة بدونـك

فأرسلتْ ساخرة:

– لا تقلق، ستعاونكَ فتياتك على ذلك!

– أعدكِ بألا أصادق أي فتاة أخرى.

– أنـتَ لـن تتغـير، وقـراري لـن يتغـير، لا تحـاول التواصـل معـي.

قبـلاً سـاورني الشـك في جديـة قرارهـا، ولكـن الآن بـدا أنهـا جادة، بل شعرتُ أنها باتتْ تمقتني بشدة!

مضـتْ الأيـام بعدئذ ثقيلة سمجة، وقد داهمتني الحمى أكثر من مرة، وران على وجهي الهم والحزن، وقد انزويت في غرفتي مُستسـلماً لألمي..

رحلتْ ورحلتْ معها سعادتي!

كنـتُ أتمنـى لـو أسـتفيق مـن حلمـي هـذا علـى صوتهـا الدافـئ!

بعضنـا عندمـا لا يطيـق الحيـاة مـعٍ الألم يحـاول أن يقنـع نفسـه بأنـه يحيـا كابوسًـا سـيفيق منـه قريبـاً.

ولقـد كنـتُ مـن الذيـن حاولـوا ذلـك وفشـلوا، فقـد كان يـزداد يقيـني يومًـا بعـد يـوم أنـني أحيـا حقيقـة، ولـو كانـتْ غـير ذلـك فلِـمَ لا يأتيـني صوتهـا يسـأل عـن حالـي، كمـا كان يحـدث صبـاح كل يوم؟

ومر شهر ونصف الشهر على هذه الحال.

لا أدري كيف حدث ولكنه حدث، أرسلتْ تخبرني أنها كانتْ قاسية معي، وأنها تعتز بصداقتي وتريد الإبقاء عليها..ولا شيء آخر!!!

وكل ما كان بمقدوري فعله هو أن أقبل ذلك، وقد قبلتُ، وظلتْ بعدئذ تعاملني كصديقها.

ولقد حاولتُ في إحدى المرات أن أستعيد ما بيننا، فقد طلبتُ منها موعداً..وألححت في الرجاء حتى وافقت.

★★★

قابلتني هذه المرة في مكان مختلف، ولقد أحضرتْ معها صديقتها، وجلسنا في إحدى المقاهي، نرتشف عصير البرتقال!

لمْ نتحدث في شيء ذي أهمية، فلقد ضايقني وجود شخصا أخر معنا، ما منعني من الإفصاح عمَّا بداخلي، فقد كنتُ أنوي أن أعتذر لها عن كل ما سبق، على أمل أن نستعيد ما بيننا.

غادرنا المقهى وسرنا قليلاً، سارتْ صديقتها أمامنا، وسارتْ هي بجانبي!

ومع ذلك أحجمتْ الكلمات عن الخروج، فانشغلتُ بالتطلع إلى المارة.

برهة وتجاسرتُ وكدتُ أبوح بما في داخلي.

ولكن فاجأني رعف أنفها من فعل الحرارة القاسية انتبهتُ له، وانتبهتْ هي الأخرى، فسدتْ انفها بظهر أصابعها لتحجب

الدماء، وأتتْ صديقتها سريعًا وأخرجتْ مناديل ورقية من حقيبتها وأخذتْ تمسح لها الدماء التي سالت.

كدتُ أن أدنو منها لأطمئن عليها، لكنها منعتني بإشارة من كفها، فوقفتُ مكاني أصغي لصديقتها تخاطبني قائله:

- سآخذها إلى المنزل.

وقفتُ أرمقهما في وجوم وهما يركبان عربة الأجرة التي استوقفتها صديقتها، ورحلا.

تسمرتُ مكاني وقتًا طويلًا حائرا، قبل أن أتخذ طريق العودة.

★★★

في مساء ذلك اليوم اتصلتُ أطمئن عليها، أخبرتني أنها بحالة جيدة، وكدتُ أن أخبرها عمَّا أردته من لقائنا، ولكني صمتُّ مليًّا أتمعن التفكير في الأمر.

- ما بكَ؟

- لا شي، فقط اتصلت لأطمئن عليكِ.

أنهينا المكالمة بعدئذ، ومكثتُ أفكر في كل ما حدث، وخاصة آخِر لقاء بيننا، وبدا لي أنها لا تنوي أن تستعيد ما بيننا..

ففي هذه المرة لمْ أركِ في الأزرق..!!!

وظلتْ من يومها تعاملني كصديقها حتى صدقتُ الأمر!

نعم لمْ ترحل من حياتي، لكنها تركتْ قلبي مفعمًا بالخواء!

محاولة أخيرة

انتهتْ من حصة الموسيقى، فدلفتْ إلى غرفتها تلملم أشياءها، فإذا به ماثل في منتصف الغرفة:

– قلتُ لك قبلا، لمْ أعد أريد البقاء معكَ، رجاءً أرحل.

وضعتْ آلتها الموسيقية في الحقيبة، وافتعلتْ أنها نسيتْ شيئاً، فولتْ ظهرها له وغادرتْ الغرفة..

رمقها وهي تغادر وقد اعتراه الهم،

أخرج من جيبه ورقة مطوية ووضعها بإتقان فوق الحقيبة ورحل.

كانتْ هذه الورقة خطاباً قضى الليل ينمقهُ كمحاولة أخيرة منه للإبقاء على حُبهما..ومن ثم غادر.

أتتْ هي بعد قليل، وقد شعرتْ براحة عندما لمْ تجده. انتبهتْ للورقة، فدنتْ من حقيبتها والتقطتها، ومن ثم جلستْ فوق مقعدها تقرأها في تأمل.

إن أردتِ الرحيل..

فعليـكِ أن تبـتري كل الأوتـار، وتمزقـي كل الألحـان، وتهربـي، اهربـي مـن همسـاتي، واختبئـي بعيـداً، لا تجعليهـم يلحقـون بـكِ..لا تجعليهـم يلمسـون وجدانـكِ

اهرُبـي، وأغلقـي أذنيـكِ، وإن اشـتعلتْ النـارُ في قلبـكِ، فرجـاءً لا تـذرفي الدمـعِ،

لا تسمحي لدموعكِ بأن تشوه وجنتيكِ الناعمتينِ

فقط انسي..أو تناسي!

وانهضي وتحركي..حاولي!

حاولـي أن تحركـي قدميـكِ إلى الأمـام، وامضـي في طريقـك دون أسـى.

ولا تنظري إلى الخلف، فأنا لا أزالُ أقفُ أنتظرك.

اهرُبـي، اهرُبـي..وإن لحـق بـكِ قلـبي، فاقبضـي عليـه براحـة يـدكِ واطعنيه.

اطعنيـه بخنجرك..حتـى يمـوت، ويتوقـف عـن النبـضُ؛ لكيـلا يحـب سـواكِ.

وانبشـي الأرضَ واصنعـي لـه قـبراً، وعندمـا تضعينـه بيديـكِ، فـلا تنظـري إلى دمـاء الألم وهـي تسـيلُ منـهُ.

وإن شـكلتْ الدمـاءُ صورتـكِ، فـلا تكترثـي ولا تتعجـبي، فهـو لايـزال يُحبـكِ.

وإن كان لا ينبضُ بفعل الحياةِ، فهو ينبضُ بفعل حُبكِ.

أما أنـا ؛ الجسـدُ المنتظر في بدايـة الطريـقِ ، فقـد هويـتُ إلى الأرضِ ، فلـم يعـد جسـدي ينبـضُ بالحيـاةِ، فقـد رحـلَ عنـهُ قلبـهُ ولحـق بـكِ، حاولـتُ أن أبقـي عليـهِ ، حاولـتُ أن أتشـبث بـه ، ولكنـه غلبـني ، وذهـب إليـكِ.

والآن قـد مـتُّ، ولم يبـقَ مـني شـيء، سـوى قلـبي الـذي ينبـضُ بحُبـكِ في قـبرهُ.

أذهبي الآن وابتعدي ، ولا تحسبي نفسك قاتلة !

فإن كان قد مات جسدي ، فلا يزال حبي حيًا .

وهذا معنى الحياة بالنسبة ليّ..

فلا أحتاجُ الجسدَ الثقيلَ لكِ أُحبكِ..

لا أحتاجُ الجسدَ الثقيلَ لكِ أُحبكِ.

وجيف قلبي

أصغي إلى وجيف قلبي يناديكِ، ويرجوكِ..لا ترحلي.

وكلما رقمتك عينيّ تبتعدين، قبضتُ براحة يدي وبكامل قوتي على خيوط الحب، وعينيّ الحزينة تواسيكِ وتسألكِ..

هل هذه إرادتكِ؟

رجاء، استديري وانظري إليّ!

ما بكِ، لماذا لا أراكِ تبتسمين؟

أين ابتسامتكِ، دواء كل أمراض قلبي المسكين!

لماذا تتملصين من بين أزهار الذكرياتْ، ألا تستنشقين رائحة عشقي، وولعي بكِ؟

رجاءً..

لا تتجاهلي، ولا تسمحي لعينيكِ بأن تزيغ بعيداً عن نهر الحنين!

أنظري إليه، وأمعني النظر..ألا تتذكري؟

ألم تسقط عيناكِ بعد على زورقنا؟

نعـم أنــه هـو، الـذي أنقذتِـني بــه مـن أحضـان العبـث، فأخـذ يجـوب بنـا النهـر حتـى اكتشـفنا هـذه الجزيـرة، جزيـرة الأحـلام الـتي كنـتِ تتمينهـا!

سـرنا معًـا بـين الحدائـق وأنـتِ تدندنـين بصوتـك العـذب فينبعـث صوتـك كأنغـام الكمـان يجـذب العصافـير، ويبعـث في الأزهـار الجافـة روحهـا مـن جديـد، لتنهـض، وترقـص، وتبتسـم، وتحسـدكِ!

تحسدكِ على جمالكِ،

وسحر ابتسامتكِ،

واحمرار وجنتيكِ.

ألا زلتِ لا تتذكرين؟

انظـري فوقـكِ، أليسـت هـذه طيـور الحـب كمـا أسميتيهـا، الـتي رافقتنـا منـذ بدايـة الطريـق، حتـى وصلنـا إلى جزيرتنـا هـذه، وأخذنـا نغـرس بـذور عالمنـا في باطـن الأرض..

تلـكَ البـذور الـتي لمْ تلبـث حتى انبثقتْ منها أشـجار وأزهـار وألوان شـكلتْ لوحـة عظيمـة عُلقـت علـى حوائط الحياة يحسـدها الحاسـدين.

ألازلتِ لا تتذكرين؟

حسنًا..

سأسـدل جفنـيّ فـوق عيـنيَّ، وسـأتمنى أن أسـتفيق مـن هـذا الحلـمُ وأرمقـكِ وأنـتِ سـاكنة فـوق صـدري غارقـة في نومـك العميـق..

ولن أخبركِ بأنني حلمتُ بكِ ترحلين!

رسالة من زوجة مخلصة

زوجي العزيز..

أكتب لكَ رسالتي هذه بعد أن مر بيننا عشرون عاماً حاولتُ دائما أن أُبقي على منزلنا مُفعمَا بالحب والسعادة، ولكن لمْ تلبث أن تبدلتَ أنتَ،

فتبدت فيه السماجة، والبذاءة، والخيانة!

تبدتْ من فعل فظاظة قلبكَ، وصخب صوتك، وعدم اكتراثك، وإهمالك لي ولأولادك.

لطالما انتظرتُ نُضجك الذي لا يأتي..

لقد اشتقتُ للتدثر بحبك، حبك الذي بات جافًا، لا يُرضي قلبي!

وكلما دنوتْ منكَ أناقشك وأنكر أفعالك وأخبرتك بأنني أحبك وأنني زوجتك، ولا أستحق خيانتكَ، فلطالما اهتممتُ بكَ ورعيتك، وشاطرتك حزنك وهمك، وتغاضيتُ كثيرا في السابق عن كل أفعالك، لكن لا يمكنني البقاء قانتة بجوارك وأنا أشعر بالخزي والإهانة!

سخطت عليَّ وجادلتني وتنصلتُ من كل فعل تأكدتُ منه بنفسي، بل وهويت فوقي بكلماتكَ البذيئة وصوتكَ الصاخب.. تتهمني بأني أفتري عليك!

بينما أنا واجمة جاحظة الأعين أتطلع إليكَ في تعجب وحيرة، حابسة دموعي، قبل أن تنهي حديثنا في حنق وتغادر غرفتنا، بل المنزل بأكمله.

وبعدئـذ أجلـس حزينـة مُسـتاءة قبـل أن تـذرف عينـاي سـهواً الدمـوع الـتي قهرتهـا..دون إرادتـي، بـل تزيـد عليهـا أطنانـا أخـرى، حتـى أكاد أجـزم أن دموعـي قـد انتهـتْ ولـن تجـد عينـاي مـا تذرفـه، ولكنـك بعدئـذ تثبـتْ لـي العكـس.

أرمـق أولادنـا وهـم يلهـون في شـيء مـن الحـيرة والقلـق علـى مسـتقبلهم الـذي بـاتَ كالخيـط الواهـن.

أراقبهـم وقـد تملكـني الحـزن والهـم، وأراهـم كقيـود تُكبلـني بجحيـم قسـوتك، فتجبرنـي علـى البقـاء معكَ..قانتـة، خاضعـة، بنفـس مُفعمـة بالخـزي، ليـس مـن أجلـك، بـل لأجـل أولادي الـذي أحبهـم، وأخشـى عليهـم المعانـاة مـن سـخط الحياة..بعـد رحيلـي.

تدلـف كعادتـكَ بعـد مُنتصـف الليـل إلى الغرفـة، فتجدنـي مُسـتلقية علـى جانـبي وعيـني السـاهرة تتطلـع إليـكَ، فتسـتلقي بجانـبي قبـل أن تسـتدير وتعطيـني ظهرك..إعلانـا عـن تذمـرك.

فأتحمـل وأصفـح عنـكَ، قبـل أن أطوقـكَ بذراعـي ممازحـة، فتقبـض علـى ذراعـي بقوة وتبعـده عـن جسـدك.

فأرمقـكَ واجمـةً حزينـةً قبـل أن أغلـق جفـنيّ في محاولـة مـني للنـوم الـذي لا يأتـي أبدا..فيظـل عقلـي سـاهرًا مـن صخـب الأفـكار الـتي تجتاحـه، وأواسـي قلـبي المُشـتعل، وأنبـش بداخلـه عـن ذكـري جميلـة معـكَ أو كلمـة حـب رقيقـة قلتهـا منـذ أعـوام مضـتْ، لتشـفع لـك عنـدي وعنـد قلـبي الـذي أضنتـه خيانتـكَ.

وتمـر أيامنـا التاليـة مضطربـة، حتـى أتناسـى خيانتـكَ وأحـاول جاهـدة أن أرضـي تذمـرك ونقمتـكَ علـيَّ.

حتـى تؤكـد لـي أنـك صفحـتَ عـني، بعـد أن تُعاتبـني علـى ذنـب لمْ أقترفـه!

وأحـاول بعدئـذ جاهـدة أن أجعلـك تـدركَ حـبي الـذي لا يـزال حيًّـا في قلـبي، فأزيـد مـن اهتمامـي ورعيـتي لـكَ.

فأحيـى هانئـة بـين ذراعيـكَ لأيـام، لكـن لا تلبـث أفعالـكَ أن تثـير شـكوكي، ويجتاحـني الخوف والقلق حتى أجـوب بخاطري هائمة بحثاً عـن تبريـر لأفعالـك! أواسـي قلـبي المُكتـظ بالشـكوك بأجوبـة اللامنطق!

ولكن ليلة أستنشق عطرًا ليس بعطري أو عطرك،

وليلة أمكث فوق أريكتي أنتظر قدومك قُبيل الفجر،

وليلـة تتوجـس أذنـي صوتـاً فأنهـض مـن فـوق فراشـي، وأتلصـص عليـكَ وأنـتَ تحـادث إحداهـنّ خلسـة بكلمـات حـب رقيقـة، أنسـيتني إياهـا مُنـذ أعـوام، وتحـدد معهـا موعـدًا للقائكـم القـادم!

فتثقـل قدمـايّ وأقبـض عليهمـا بقـوة، علـى أمـل أن أسـتفيق مـن هـذا الكابـوس، لكـن لا ألبـث أن أيقـن أنـه ليـس مجـرد حلـم!

أعـود إلى فراشـي مُترنحـة، وأتوسـد وسـادتي الـتي ابتلـتْ مـن دموعــي.

وتأتـي أنـتَ بعدئـذ وتسـتلقي بجـواري في هـدوء خشـية أن أسـتفيق علـى صوتـك.

وسرعان ما تغرق في نومك، وأنا لا أزال ساهرة أتطلع إلى الحائط..شاردة، هائمة، حزينة،...,...!

وفي نهار اليوم التالي أظل أعتصر عقلي باحثة عن ملاذ يُخلصني من همي وحزني..

هل أواجهكَ؟

ستهرب من فعلتكَ وتتذمر وتلمنى بقسوة مثل كل مرة، وتراودني فكرة جديدة، فأتجنبكَ الأيام التالية، مُظهرة عدم اكتراثي، وأُجيب عن أسئلتك بكلمات مُقتضبة، حتى تستشعر ذلك وتسألني:

– ما بكِ؟

فلا أُجيب، وإن ألححتَ عليَّ، أُجيب..

– لا شيء.

وتعود بعدئذ بيوم تسألني من جديد، فأخبركَ بأن صمتي أفضل من حديثي، فكلماتي لا تُجدي معكَ نفعاً فتصمت ولا تنبس بكلمة، وفي الليل تُخبرني بأنه يجب عليَّ أن أخبرك بما يدور في داخلي..فأواجهك بأفعالك، فيعود سخطك ونقمتك ويعلو صوتك من جديد وتعود كلماتك مُحاولاً التهرُّب..كما اعتدتَ دائمًا، فأنزعج منك ولا أتحمل كظم غيظي فأصيح بك مهتاجة،

– إنني أفضل منكَ، أما الخيانة، فكثيراً ما حام الرجال حولي، وكثيراً ما قابلتُ كلماتهم الرقيقة التي تحاول الظفر بقلبي بكلمات صارمة، قاسية حتى يبتعدوا، ليس لأني أحبك فقط،

بـل لأنـي تربيـتُ علـى الوفـاء ومقـت الخيانـة.

حاولـتَ أن تواسـيني مـع الحفـاظ علـى تذمـرك، فلـم يضـف أيـة كلمـة، وأويـتُ إلى فراشـي، وأنـا أتمنـى أن نقمـتي ولومـي يكونـان سـبب اسـتفاقتكَ ونضجـك.

★★★

ولكني اكتشفتُ الآن، أنك لن تتغير أبدا

لذا قررتُ أن أكتب رسالتي لأعلمكَ أنني راحلة!

راحلـة حقـا ولـن أعـود أبـداً، لأنـي لمْ أعـد تلـك الضعيفـة الـتي أراهـا في عينيـكَ.

فلـم أعـد أحتمـل المزيـد مـن الإهانـة معـك، ولم يعـد يمكنـني التغاضـي مـن أجـل حبـك..

فالحـب لا يمكنـه أن يسـكن نفـس البيـت الـذي يسـكنه الكـذب والخـداع والخيانـة..

أما أولادي فسآخذهم معي حتى لا تنقل لهم مرض الخيانة..

راحلـة الآن، وسـأصفق بابـك خلفـي وأمضـي دون أن أنظـر لذلـك المنـزل البغيـض الـذي جمـع بـين الوفـاء والخيانـة.

راحلة..

ولا تنتظر عودتي...!

رياح سمجة

زرعتُ شجرتي فوق جزيرة يغذيها فؤادي بالحب والسلام، ويحيطها نهر عذب مُفعم بالحياة.

فترعرعتْ شجرتي وارتفعتْ وتوغلت أغصانها في أعماق السماء.

وتدلتْ أوراقها الصفراء الجميلة ترقص على الأنغام.

وجلستُ أسفلها، أنسج خيوط السعادة وأصنع قلادة من الذكريات.

وبينما كنتُ رافعًا رأسي عاليا أرمق الأوراق، هبت رياح سمجة قاسية خطفت الأوراق ومضتْ تبتعد.

فهويتُ بجسدي إلى النهر أصارعه حتى يسمح لي بالعبور للجانب الآخر، الذي لمْ أدر يومًا كيف تكون ملامحه.

وعلى الجانب الآخر وقفتُ واجماً أمام نباتات عملاقة سوداء جافة كحائط ضخم تمنعني من العبور دون ألم، وقد نثرت على جذعها أشواك العبث.

لمْ أكـترث بـآلام جسـدي فربمـا تُنسـيني آلام قلـبي، وتوغلـتُ في داخلهـا بحثًـا عـن أوراقـي.

وبغتـة، لمحـتُ أوراقـي تلمـع كالنجـوم وهـي مُجـبرة على طريقهـا مـع الريـاح.

فأخـذتُ ألاحقهـا، وأنـا أتخلـص بجسـدي مـن بـين النباتـات وأتفـادى وخـز الأشـواك، بينمـا أرفـع يـدي نحـو السـماء في محاولـة لالتقـاط الأوراق.

واختبأتْ الشمس ألماً وخجلاً،

وهوتْ النجوم واحدة تلو الأخرى، حزنا وأسى.

وأسْـدل علـى الوجـود ظـلام دامـس لمْ يسـمح لـي برؤيـة شـيء حولـي.

وزاغـت الريـاح بـالأوراق حتـى غابـت عـن بصـري، أخـذتُ أسـرع مـن خطواتـي وأنـا أتعثـر بجـذوات ملتهبـة تحـرق قدمـيّ.

وأكملـتُ صراعـي مـع طريقـي الطويـل، حتـى بلغـتُ حافـة جبـل عـالٍ، فـإذا بـالأوراق تهـوي إلى أعمـاق الظـلام، فهـوى جسـدي تعبـا ويأسـاً، وأخـذتُ أمسـح العـرق الـذي أفـرزه جسـدي.

خيّـم علـيَّ السـكون برهـة، فتوجسـتْ أذنـي صوتـا زاد شـيئًا فشـيئاً حتـى انتفضـتُ فزعـاً وتطلعـتُ مـن حافـة الجبـل إلى الأسـفل، فـإذا بالريـاح تظهـر وتتجسـد في وحـش عمـلاق أسـود، بـدا لـي أنـه سـينقض علـيَّ، فهرعـتُ فزعـاً أعـود إلى جزيرتـي مـرة أخـرى.

وبينما كانت يد الوحش ممتدة خلفي في محاولة للظفر بيّ، وثبتُ إلى مياه النهر،

وأخذتُ أفقد وعي، بينما تحركتْ المياه من تحتي حتى ألقت جسدي على شاطئ الجزيرة.

★★★

استفقتُ على وكزات أقدام صغيرة تتحرك فوق صدري، ففتحتُ عينيّ على طائر أبيض اللون تشوبهُ بقع صفراء اللون، أخذ يحدق فيَّ وكأنه يواسيني بعينيه الزرقاء، فتلمستُ مؤخرة رأسه براحة يدي واعتدلتُ في مجلسي قبل أن أعود إلى الخلف بجسدي حتى ارتطم ظهري بجذع الشجرة، ورفعتُ رأسي أتطلع إلى الأوراق التي تبدل لونها إلى الأزرق..حزنًا!

وضعتُ الطائر فوق ركبتي وأنا أتلمسه بيدي بينما أتساءل:

متى تجهز الرياح مرة أخرى لي، وأي أوراق ستخطف؟

مهلاً!

ليتكَ تدري حقيقة أن كل شيء في الحياة يحيا على عون الآخر، لعلكَ تُدرك ما يحتاجه قلبي ليحيا!

احتواء

– ليس بمقدوري أن أحتويكِ!

هكـذا قلتهـا وعينيـكَ تأبـى أن تتطلـع إلى الرجـاء الـذي يعتلـي وجهـي، لمْ تـرَ الدمـوع وهـي محتجـزة أمـام عيـنيّ، ولم تستشـعر ارتعـاد قلـبي ويـديّ.

أشرتَ إلى باب القطار وأنتَ تنطقها دون غضاضة:

– عليكِ الذهاب!

كيـف يسـهُل عليـكَ نطقهـا؟!لمْ يكـن هـذا حالنـا قبـلا؛ كنـتَ تضمـني إلى صـدرك، وتخبرنـي عـن حبـك، وعـن نـار الشـوق الـتي سـتتأجج في قلبـكَ بعـد رحيلـي!

لمَ بات هذا حالنا؟!

هـل لأنـي تذمـرتُ علـى تجاهلـكَ لـي في الشـهور الأخـيرة، وقلـت لـك:

– عندما تتجاهلني، تقولها صراحة..ابتعدي!

أو ربمـا لأنـي قلـتُ لـكَ يومـا، إنـكَ غـير قـادر علـى احتوائـي، لهـذا أنهيـتَ مـا بيننـا وأنـتَ تتحـدث عـن الاحتـواء، وكأنـكَ عـازم علـى الانتقـام!

أهذا ما أزعجكَ؟!

قلتَ لي يوما: الحبُّ هو الاحتواء..الحب هو الاهتمام.

قلتَ لي: سأبقى بجوارك!

فلِمَ أرى أفعالك تناقض ما قلته لي؟!

كل مـا أردتـه منـكَ أن تواسـيني، تزيـح همـي، وتكفكـف دمعـي لكنـك أريتـني أشـياء أخـرى لمْ أعتدهـا مـن أحـد قـط.

- عليكِ الذهاب!

ناولتني الحقيبة، فدلفتُ إلى القطار وجلستُ على أحد المقاعد،

برهـة ونهضـتُ وتطلعـتُ إليـكَ مـن نافـذة القطـار .. فـإذا بـكَ تبتعـد!

لِمَ؟!

أراكَ غـير حزيـن لرحيلـي، ربمـا تناسـيتَ حُبنـا وآمالنـا، أو لعلـكَ لا تُريدنـي أن أرى حزنـك، فأنـزل مـن قطـاري مُسـرعة نحـو حضنـك!

جلسـتُ فـوق مقعـدي مـرة أخـرى أكفكـف دمعـتي، وأنـا حائـرة، حزينـة، شـاردة، هائمـة، أمعـن التفكـير في كل ذكرياتـي معـكَ، لعلـي أدرك مـا ألمَّ بـكَ.

هل كنا عاشقين حقا؟

أم كنا نمثل دور العاشقين في أحد الأفلام السينمائية؟

يصعـب علـيَّ تصديـق مـا يحـدث، ويصعـب علـى قلـبي التناغـم مـع فراقـك..

فلقد وضعتَ بداخلي شيئا ليس من السهل التخلص منه..

وكل ما يمكنني فعله، هو التدثر بمعطف الانتظار،

ليتكَ تُدرك هذا..لعلكَ تُبدل معطفي بمعطف حبكَ!

حنينك الزائف

هجرتـهُ وهـو في الرابعـة عشرة مـن عمـره لتحيـا مـع الرجـل الـذي اختارتـه، ومـن يومهـا قـل تواصلهمـا، واليـوم أرسـلتْ لـه تطلـبُ لقـاءه، وتقـول لـه إنهـا سـئمتْ هـذا البعـد وهـذه المسـافة الموجـودة بينهمـا، فأرسـل لهـا يقـول:

- كم أمقت حنينك الزائف!

أمقـت كلماتـك البذيئـة الـتي كانـتْ تُحطـم قلـبي صبـاح كل يـوم، أمقـتُ تمجيـدك المفتعـل لـي أمـام الآخريـن

تبديـن وكأنـك تُمجديـنـني وتُعظمينـني لأنـك تُحبيـنـني، والحقيقـة أنـك لا تُمجديـن ولا تُعظمـين سـوى نفسـك!

تدعـين أنـكِ ربيتـني علـى القيـم والفضيلة..والحقيقـة أنـك لمْ تكترثـي أبـدًا بتربيـتي!

كنتُ وحيداً..حزيناً..تعيساً

لمْ تسـأليني أبـدا عـن حالـي، لِمَ لمْ تُكلفـي نفسـك عنـاء السـؤال عـن سـبب وحدتـي وانطوائي؟!

إن كنتِ تحبينني كما تدعين..

لِمَ كنتِ دائما تتهمينني، وسريعا تعاقبينني..قبل أن تسمعيني؟!

كيـف الآن تستعجبين سـخطي وحنقـي وجـز أسـناني عندمـا أصغي إليـكِ وأنـتِ ترشـقينني بكلماتـك القاسـية قبـل أن أتبـادل الرشـق معـكِ بكلمات أقســى؟

مطلوب مني أن أحبكِ؟!

لِمَ علـيَّ أن أفعـل وأنـا كلمـا اسـتحضرتُ صورتـكِ تنبعـث أمامـي كل ذكريَاتـي معـكِ بمرارتها، وقسـوتها؟!

ذكريــات جميعهــا تبــدأ بمشــهد عينيــكِ الجاحظــة الغاضبــة، فتنبعــث جراحــي مــع كل ذكــرى.

كم حاولتُ أن أمزق ذكرياتي وأتناساها،

كم حاولتُ أن أبدأ معكِ صفحة جديدة بيضاء..

لكنها لا تلبث أن تتلوث بقسوتكِ.

لِمَ عليَّ أن أفعل؟

هــل لأنــك حملتِــني تسـعة أشــهر، أهــذا فضلــك علــيَّ كمــا يدعون؟

لا، هذا إثمك الأول في حقي!

مــا كنــتُ أريــد أن أولــد لأتــي لهــذه الحيــاة الزائفــة، وأرتطــم بعبثيتهــا!

لهذا لا أراه فضلاً يا أمي، بل خطيئة!

لِمَ أنجبتينني..إن كنتِ تتمنين لو لمْ آتِ؟

هل انتبهتِ الآن لخطئك؟

..لإثمك؟

..لجريمتك؟!

نعم، إنجابك لي جريمة..

إن كنتِ لن تحبيني، لن تحترميني، لن تُذيقيني الحنان.

لقد تعلمتُ الحسد وأنا أراقب أمهات الأطفال من حولي، وهم يملأون وجوه أطفالهم بالقبلات، ويضمونهم في حضن عميق، فتتبدى السعادة فوق قسمات هذه الأطفال..سعادة لم أستشعرها قط!

ما الفرق بينك وبينهم؟

هل قبلتني يوماً، هل ضممتني بين ذراعيكِ؟

نعم!

كان هذا بعد أن تنتبهي لآثار ضربك لي، عندما تسقط عيناكِ صدفه على الأجزاء المتفرقة من جسدي المكتظة بالندوب.

نعم!

كان هذا شبيه بأحضان الأمهات لأطفالهم..لكنه كان زائفًا..مُفتعلاً،

فلم يبعث بداخلي سعادة، ولم يشفع عندي لأغفر لكِ شيئا.

لا يا أمي، كلما تذكرتك لا أرى سوى قسوتكِ.

أسف ليس بمقدوري أن أفتعل لكِ فضلا أو ذكرى جميلة.

لهـذا يـا أمـي إن وقفـتِ يومًـا في جنازتـي فـلا تـذرفي دمعـة واحـدة عليَّ..

لأني ما كنتُ لأذرفها عليكِ..!!!

أوهام

أتاني وأنا واقفة بجوار صديقتي أمام قاعة المحاضرات، يطلب محضرات الأسبوع المنصرم والذي غابه بسبب انشغاله ببعض الأعمال المهمة.

أخبرته بأني سأجلبهم له غداً، فشكرني وعاد إلي صديقه الذي كان يقف بعيدا عنا ببضع خطوات.

وعندما أزف موعد المحاضرة، دلفتُ أنا وصديقتي إلى قاعة المحاضرات وجلسنا على أحد المقاعد، فدلف هو وصديقه وجلسا في مكانهما المعتاد.

أتاح لي مكاني رؤيته بوضوح، فأخذتُ أرمقه في شيء من الشرود، كان يعبث بهاتفه، قبل أن يميل برأسه ويهمس في أذن صديقه بشيء ما..

أخرجني من شرودي صوت صديقتي الهامس:

— انتبهي، فلقد حدق فيكِ الدكتور أكثر من مرة.

اعتدلتُ في مجلسي واستعدتُ انتباهي .

انتهـت المحاضـرة، فغادرنـا القاعـة، ووقفنـا أنـا وصديقـتي نتحدث بجـوار السـلالم، فانتبهـتُ لـه وهـو يخـرج مـع صديقـه، وخيـل إلـيَّ مـن ابتسـامته أنـه سـيدنو مـني ويحدثني..ربمـا يطلـب رقـم هاتفـي!

لكنه مر من أمامي دون أن ينبس بكلمة!

ناديته..

فألتفتَ لـي وارتقـي تلـكَ الدرجـات الـتي كان قـد نزلهـا في حـين وقـف صديقـه ينتظـره.

شعرتُ بحرارة وجنتيّ وأنا أطلب منه رقم هاتفه.

مد يديه نحو هاتفي الذي كنتُ قابضة عليه بيدي.

الرقم، فأعطيته إياه.

انشـغل بتدويـن رقـم هاتفـه، في حـين زاغـتْ عيـنيّ علـى صديقـه مـن خلفـه وهـو يرمقـني بنظرتـه الغريبـة، وقـد بـدا أنـه لمْ يرُقـه تصـرفي هـذا.

– تفضلي، لقد دونته باسمي.

التقطتُ هاتفي، فعاد هو لصديقه وابتعدا.

وبختني صديقتي في شيء من النقم والاستياء على تصرفي هذا..

– لقد تجاهلكِ فلِمَ أوقفته؟

– كاد أن يطلب رقم هاتفي إلا أن الخجل منعه.

- لكنه لمْ يطلبه، ما كان ينبغي لكِ أن تتصرفي بهذه الطريقة، ربما تخلقي في عقله صورة سيئة عنكِ.

اعتذرتُ لها عن تصرفي الطائش، ولكن بدا أن اعتذاري لمْ يُرضها؛ فقد أخبرتني أنه ينبغي للفتاة أن تكون أكثر حياء، وعندما انتبهتْ للحزن يعتلي وجهي، اعتذرتْ وضمتني إليها في محاولة لمواساتي، فقبلتُ اعتذارها ومضينا عائدتين إلى منازلنا.

★★★

بدلتُ ملابسي وجلستُ على حافة فراشي، بينما ساورني شك أن تصرفي بدا له غير لائق، واجتاحني خوف أن أكون خلقتُ صورة سيئة بعقله كما أخبرتني صديقتي..

- سأدرك ذلك من صوته إذا اتصل بي.

مرت ساعات في انتظار اتصاله، في حين كنتُ أقوم بأعمال المنزل التقليدية، سئمتُ الانتظار وبدأتُ أندم على تصرفي..فما حاجتي لرقم هاتفه إن كان لن يتصل بيّ؟!

ضربتُ جبيني براحة يدي:

يا لي من حمقاء، إنه لا يعلم رقم هاتفي!

أسرعتُ نحو هاتفي واتصلتُ به، وبينما كانت سماعة الهاتف مُلتصقة بأذني أنتظر استجابته، انتابني التوتر، وازداد رجف قلبي شيئًا فشيئًا، وناكفني شعور بالندم وأنا ألوم نفسي على اتصالي، فلا أدري بأي كلمات سأحدثه وأي مُبرر سأخبره.

واطمئـن قلـبي عندمـا لمْ يـرد، فعـدتُ انشـغل في أمـور أخـرى، وغـادرتُ غرفـتي أتنـاول العشـاء مـع أسـرتي.

★★★

عـدتُ إلى غرفـتي والتقطـتُ هاتفـي، فـإذا بثـلاث مكالمـات منـه لمْ يتـم الـرد عليهـا، انتابـني الارتبـاك، وجلسـتُ فـوق فراشـي مـترددة، ولكـن لمْ ألبـث حتـى تجاسـرتُ واتصلـتُ بـه..

عاودتـني تلـك المشـاعر المضطـرب، فكـدتُ أن ألغـي اتصالـي، إلا أن صوتـه الـدفيء فاجئـني..

– من معي؟

أخبرتـه في شـيء مـن التلعثـم بأنـه أنـا، ولقـد اتصلـتُ بـه ليعلـم رقـم هاتفـي، فشـكرني، وأضـاف بعـض الكلمـات حـول المحاضـراتْ..

وعندمـا خيّـم الصمـتُ علينـا، شـعرتُ بأنـه يُريـد إنهـاء المكالمـة، فسـألته إن كان يحتـاج مـني شـيئاً آخـر، فاسـتمهلني قائـلاً:

– هل أنتِ مشغولة الآن؟

– لا!

– حسنا، هل يمكننا التحدث قليلا؟

صمتُّ برهة، افتعلتُ فيها التفكير في الأمر ثم أجبته:

– أجل، يمكننا.

مـرتْ سـاعات ونحـن نتحـدث في مواضيـع عـدة، وأفصـح لـي المزيـد عـن نفسـه، وأفصحـتُ أنـا الأخـرى، حتـى أنهينـا المكالمـة بعـد اتفاقنـا علـى اللقـاء غـداً.

★★★

في الصباح دلفتُ من بوابة الجامعة، بينما أحادثه بالهاتف:

– أين أنتَ؟

وصـف لـي مكانـه، فذهبـتُ إليـه، وعندمـا انتبـه لـي وأنـا أدنـو منـه، نهـض مرحبـاً بـي قبـل أن يطلـب مـني الجلـوس، فجلسـتُ بجـواره مـع الحفـاظ علـى مسـافة بيننـا، كمـا أخبرتـني صديقـتي!

أعطيتـهُ دفـتر مُحاضراتـي، فشـكرني، وأخـذ يتصفحـه هُنَيْهَـة، ومـن ثـم أخذنـا نتبـادل الحديـث، وأخبرتـه أن لـدي اختبـارًا تدريبيـا غـدا علـى الحاسـب الآلـي، أخشـاه بشـدة وينتابـني القلـق حيالـه.

– يمكنـني مُعاونتـك في هـذا الأمـر، إن سمحـتِ لـي، فلقـد اجتـزتُ هـذا الاختبـار أكثـر مـن مـرة.

– كيف؟

– نلتقـي غـداً في مكاننـا هـذا قبـل الاختبـار التدريـبي بسـاعة، وسأشـرح لـكِ الأسـئلة المهمـة.

وافقـتُ، واسـتأذنتُ منـه للذهـاب إلى مُحضراتـي بعـد أن أخبرنـي أنـه لـن يحضرهـا اليـوم.

★★★

في اليـوم التالـي ذهبـتُ إلى نفس المـكان، وجلسـتُ بجـواره، ولكـن تقلصت المسـافة بيننـا هـذه المـرة، حتـى يمكنـني الإصغـاء وإدراك مـا يشـرحه لـي علـى حاسـبه المحمـول، أخـذ يُعيـد شـرح كل الأشـياء الـتي كانـتْ صعبـة الفهـم علـيَّ قبـلا.

أتى صديقه وناداه، فاستأذني وذهب إليه.

وقفـا يتهامسـان، في حـين أخـذتُ أعبـث بحاسـبه المحمـول لـكِ أتـوارى بعيـنيّ عـن رامقـات صديقـه المعتـادة، ولقـد أيقنـتُ هـذه المـرة أنـه يعتقـد فيَّ شـيئا مـا، ربمـا يعتقـد أنـني فتـاة سـيئة.

عـاد مـرة أخـرى واعتـذر عـن تأخـره، وجلـس بجـواري وأخـذ يُكمـل مـا كان يشـرحه، تطلعـتُ إلى صديقـه الـذي ابتعـد ووقـف مـع بعـض الشـباب يحدثهـم، بينمـا كل برهـة يعـاود التحديـق فيَّ..انتابـني الخـوف مـن تحديقـه الـذي كان يـزداد شـيئًا فشـيئًا، ولكـني تجاهلتـه وعـدتُ أتابـع الشـرح في اهتمـام.

– انظري هذه هي أهم الأسئلة التي يحتمل أن تأتي لكِ.

أخـذتُ أتابـع أناملـه وهـي تُشـير نحـو الشاشـة علـى بعـض الأمـور المهمـة، ومـن ثـم سـألني إن كان هنـاكَ شـيء لمْ أفهمـه بعـد، لُعيـده لـي شـرحه.

– لا، لقد فهمتُ كل ما أحتاجه.

أغلـق حاسـبه، ووضعـه بعنايـة بداخـل حقيبتـه، وأخـذ يعبـث بيـده في أحـد جيـوب الحقيبـة قبـل أن يُخـرج دفـتر مُحاضراتـي ويناولـني إيـاه..

- تفضلي، لقد نسختُ نسخة من المحاضرات، شكرا لكِ.

- على الرحب.

وضعــتُ دفــتري بداخــل حقيبــتي، واســتأذنتُ منــه مُبتســمة، وذهبــتُ إلى اختبــاري.

★★★

في مســاء ذلــك اليــوم، اتصلــتُ بــه وأخبرتــه بأنــني اجتــزتُ تدريــبي بتقديــر امتيــاز، وشــكرته علــى معاونــتي، وتحدثنــا عــن بعــض الأمــور الخاصــة بهــذا التدريــب، قبــل أن يُفاجئــني سـؤاله:

- ولكــن لمَ تأخــرتِ في إخبــاري عــن اجتيــازك التدريــب، لقــد كنــتُ منتظــرًا اتصالــكِ؟

- آســفة، فلقــد تســكعتُ مــع صديقاتــي قليــلاً؛ لنشــتري بعــض الأشــياء.

- لا عليكِ.

تحدثنا قليلاً، ومن ثم أنهينا المكالمة.

ارتميــتُ علــى فراشــي هانئــة، مبتســمة، لقــد فاجأنــي ســؤاله حقــاً، لكنه أســعدني!

وقبــل نومــي، اتصلــتُ بصديقــتي وأخبرتهــا بآخِــر مكالمــة معــه، فتمنــتْ لــي خــيرًا!

★★★

أعتـدتُ دائمـا أن أتشـارك مـع أمـي كل مـا يحـدث لـي، وعندمـا أخبرتهـا عنـه وعـن معاونتـه لـي، أثنـتْ عليـه، وأخبرتـني بأنـه ينبغـي لـي أن أدعـوه لزيارتنـا والغـداء معنـا، وقـد راقـتْ لـي فكرتهـا، فاتصلـتُ بـه، واقترحـتُ عليـه الأمـر، لكنـه أعتـذر قائـلا..

- رجـاء إعفائـي مـن هـذا الأمـر، فأنـا أشـعر بالخجـل الشـديد عندما أحضـر في بيـت أحدهم.

قبلـتُ اعتـذاره، واقترحـتُ عليـه أن يكـون الغـداء بالخـارج، في أحـد المطاعـم القريبـة مـن الجامعـة:

- حسنا، موافق.

- لكن لدي شرطًا واحدًا.

- ما هو؟

- أن يكون الغداء على حسابي.

صمتَ قليلاً بدا فيها مترددا ثم أخبرني بأنه موافق.

★★★

جلسـنا معًـا نتنـاول الطعـام، بينمـا أحادثـه بتفاصيـل أكثـر عـني لمْ يكـن يعلمهـا، أخبرتـه بالشـخص الـذي أحببتـه أعوامًـا ولكـني هجرته لأنـي سـئمتُ تذمـره، وأنانيتـه ، وحـب امتلاكـه لـي، وأخبرتـه أيضـا عـن إخوتـي وعـن أبـي وعملـه، وأخرجـت لـه صـورة أبـي مـن حقيبـتي، فالتقطهـا وتأملهـا برهـة قبـل أن يُعديهـا إلـيَّ فأضعهـا بحقيبـتي، واسـتكمل حديثـي الـذي كان يُصغـي لـه باهتمـام، قبـل أن أسـأله:

– ألن تُخبرني بتفاصيل أكثر عنكَ؟

أخـذ يُحدثـني عـن بعـض الأمـور الـتي لمْ أعرفهـا عنـه، في حـين أصغـي لـه مُبتسـمة، قبـل أن تتلاشـى ابتسـامتي عندمـا قـال:

– ...، وأحبُ فتاة مُنذ أعوام، أتمنى الزواج منها.

صعقتـني كلماتـه، وشـعرتُ باضطـراب قلـبي ، ولقـد بـدا أنـه انتبـه لذلـك، فقـد توقـف عـن الحديـث، فالتقطـتُ حقيبـتي وأخـذتُ أعبـث بهـا مُفتعلـة أنـني أتأكـد مـن وجـود شـيء مـا بهـا، بينمـا طلبـتُ منـه أن يسـتكمل حديثـه، أخـذ يصفهـا بأنهـا فتـاة رقيقـة، جميلـة، يحبهـا بشـدة، وأسـهب في وصفـه لهـا والثنـاء عليهـا.

وضعـتُ حقيبـتي جانـبي مـرة أخـرى، واعتدلـتُ أفتعـل اهتمامـي، كنـتُ أحـاول جاهـدة أن أدفـع بكلماتـه بعيـداً، لكنهـا كانـتْ تهـوي فوقـي كالأسـهم فتخـترق قلـبي، لا أدري لمَ شـعرتُ أن المـكان بـات مُعتمًـا عـن ذي قبـل، كـدتُ أن أطلـب منـَه التوقـف عـن الحديـث، ولكـني تملكـتُ نفسـي حتـى انتهـى وقلـتُ:

– أتمنى لكَ حياة سعيدة معها، حاول ألا تغضبها، وتشبث بها جيداً.

– نعم أحاول ذلك.

بالتأكيـد لمْ يـدرك أن الفتـاة عندمـا تنصـح شـخصاً، لا تكـون كلماتهـا مجـرد نُصـح، بـل مـا تمنتـه هـي معـه..

خيّـم علينـا صمـت طويـل حتى انه خيـل إليَّ أن الوقـت قد توقف، في حـين أحـاول جاهـده أن أبـدو طبيعيـة أمامـه، أخـذتُ أتتطلـع إلى ما حولـي بينمـا يـكاد عقلـي ينفجـر مـن صخـب الأفـكار الـتي تجتاحـه

حقيقة بات من السهل عليَّ تصديقها الآن..نسبية الزمان، كما أخبرنا إينشتاين!

ولو كان الزمان غير نسبي، فلِمَ أمضيتُ أعواماً أتألم في ثواني قليلة!

جذبني من شرودي بسؤاله:

- هل في نيتكِ أن تُحبي مرة أخرى؟

حدقتُ فيه بعين جاحظة لبرهة في شيء من التعجب، بينما أحاول أن أبحث عن المغزى الكامن في سؤاله، فإن كان يحب فتاة حقًّا، فلِمَ يسألني مثل هذا السؤال.!

- لا أدري..ربما، لكن لِمَ تسأل؟

تنهد وهو يلتقط علبة سجائره، واستلَّ سيجارة منها وأشعلها بعد أن استأذنني، ومن ثم تأملني لبرهة، بدا فيها أنه متردد عن البوح بشيء ما:

- حسنا، سأكون صريحاً معكِ، لمْ أكن أحتاج إلى دفتر مُحاضراتك، وكانت هذه حجة للتقرب منكِ.

فازداد تعجبي وهو يضيف سؤاله:

- أتتذكرين صديقي، الذي يكون برفقتي دائماً؟

- نعم، أتذكره!

- إنه يحبك، وهو من طلب مني التقرب منكِ.

وأخذ يصفه لي على أنه شخص طيب القلب ، وصادق، و...!

– لقد تمنى أن يُفصح لكِ عن حبه بنفسه، لكن لمْ يكن بمقدوره فعلها، وما فعلته كله كان من أجله، أتمنى أن تسمحي له بلقائك، لتتعرفي عليه أكثر.

شعرتُ وكأن الدماء تجمدت بداخلي، وأحجمتُ عن الرد على كلماته القاسية، وحقيقته المخزية، وخيل إليَّ أنني أنهض وأصفعه على وجهه، وندمتُ بعدئذ أنني لمْ أفعلها، ربما كنتُ أرحتُ ما بداخلي..

– لِمَ أنتِ صامتة؟

– في الحقيقة لا أريد الخوض في علاقة جديدة، لدي مستقبل أهتم به أولا.

– قابليه قبل أن تحكمي عليه ربما يروق لكِ الأمر.

– آسفة لا أرغب في ذلك.

خيّم علينا الصمت، وبعد دقيقة أخبرته بأنه يجب عليَّ العودة، فنهض عازماً على إيصالي.

أوصلني إلي ناصية الطريق، وطلب مني أن أسمح له بإيصالي إلى الحافلة، لكنني رفضتُ، فشكرني على الغداء واستدار ليبتعد.

سالتْ دموعي وأنا أتأمله يبتعد، ثم استدرتُ وأخذتُ أسير في الاتجاه المعاكس له، ويدي تُكفكف الدموع التي تذرف بلا انقطاع.

★★★

جلستُ فوق أحد مقاعد الحافلة، وأخذتُ أراقب الطريق عبر النافذة الزجاجية بعين دامعة وأنا أتساءل..

ما هذا الذي حدث؟

أكنـت مخطئـة، كنـت أظـن أنـه يكـن بداخلـه مشـاعر نحـوي، كنـت أظـن أن...!

ظلـت الأسـئلة تجـول في ذهـني حتـى أنـني كـدتُ أن أصـرخ مـن كلماتـه الـتي كانـت تـتردد في ذهـني.

كم أتمنى فقدان ذاكرتي،

لعلها تأخذ آلامي معها!

هُنَيْهَة، وواسيتُ نفسي قائلة:

من الجيد أنني لمْ أحبه،

نعم..لا أحبه، إنني أمقته بشدة!

أسـدلتُ جفـنيّ، وخبـأتُ وجهـي في كفـيَّ، ومكثـتُ وقتـاً بـدا طويـلاً، ومـن ثـم اسـتفقتُ ومـررتُ بمنديلـي الورقـي علـى عيـنيَّ كلتيهمـا قبـل أن أكـوره في يـدي بقـوة وألقـي بـه مـن نافـذة الحافلـة.

★★★

دلفـتُ إلى منزلـي، فقابلتـني أمـي باسمـه، إلا أنهـا عندمـا تأملتـني لبرهـة تلاشـتْ ابتسـامتها، وسـألتني:

– ما بكِ يا حبيبتي؟

فارتميتُ بين ذراعيها أبكي، وأقص عليها ما حدث!

أسفل أنغام المطر

أخذتُ أرمق قطرات الأمطار وهي تنزلق فوق الحائط الزجاجي المطل على الطريق، بينما أنا جالس فوق مقعدي في زاوية المطعم ذات الضوء الخافت، أستمع إلى أنغام الموسيقى السابحة حولي، تذكرتُ ابتسامتها وصوتها العذب عندما أخبرتني بأنها موافقة على دعوتي للعشاء معًا.

تطلعتُ إلى ساعتي ومن ثم شغلتُ نفسي في ترتيب الزهور الموجودة فوق الطاولة، أزحتها قليلاً حتى يتسنى لي رؤيتها عندما تأتي، ومن ثم عاودتُ النظر خارج الزجاج أراقب الأمطار وهي تهوي وترتطم بالأرض.

وبعد هُنَيْهَة، توقفت عربة أجرة أمام باب المطعم، ونزلتْ فتاة منها، أخذتْ تعبث بحقيبتها لبرهة، قبل أن تنحني وتناول السائق بعض النقود، دققتُ النظر إليها وهي تُغلق حقيبتها فتأكدتُ أنها هي، أسرعتْ من خطواتها ودلفت من باب المطعم تجوب بعينها بحثاً عني قبل أن تستقر عيناها عليَّ وأنا أنهض من فوق مقعدي وأدنو منها.

التقطتُ يديها ووضعتُ قبلتي على أصابعها، وأنا أبدي سعادتي بقدومها.

قرَّبت لها المقعد المواجه لمقعدي فجلست عليه، وجلستُ أنا أمامها، خيَّم علينا الصمتُ هُنَيْهَة تبادلنا فيها النظرات والابتسامات، ومن ثم بادرتها بالحديث قائلا:

– يروق لي فستانكِ.

فقالتْ مُبتسمة:

– شكراً.

– انتقي شيئاً لتأكليه.

التقطت القائمة الموضوعة أمامها، وأخذتْ تتطلع إليها، فالتقطتُ أنا الآخر القائمة الموضوعة أمامي أفتعل قراءتي بينما أتأملها خلسة، أتأمل شعرها المُسدل على كتفيها وقسمات وجهها، وأنا أتساءل إن كان الاحمرار الذي يعتلي وجنتيها من فعل الخجل؟!

أغلقتْ قائمتها ووضعتها في هدوء على الطاولة مرة أخري، وأخبرتني بما انتقته لنفسها، فأغلقتُ قائمتي ووضعتها أمامي، وأخبرتها أنني أُفضل تناول ما انتقته هي فازدادت ابتسامتها إشراقاً.

أومأتُ للنادل الذي كان يقف قريباً منا، وأخبرتهُ بمطلبنا، فذهب ليجلبه، وأثناء ذلك أخذتُ أسألها عن حالها، وأتبادل معها بعض الحديث.

لمْ يمكث النادل حتى أتى ووضع الأطباق فوق الطاولة.

اكتفينا بتبادل النظرات والابتسامات أثناء تناولنا الطعام، وبعد انتهائنا طلبتُ من النادل الذي كان يُلملم الأطباق أن يُحضر لنا مشروبًا ساخنًا، فأحضره سريعا.

أخذتْ تخبرني عن سعادتها من انتهاء لوحتها الأخيرة التي كانتْ ترسمها منذ أكثر من شهر:

– يجب أن تطلع عليها.

– بالطبع سأفعل.

خيّم علينا الصمت قليلاً، ومن ثم أخبرتني بأنها تتمنى لو نذهب لمكان آخر، فوافقتها الرأي، فانتقيتْ هي إحدى الحدائق العامة، فغادرنا المطعم واستقللنا عربة أجرة لتوصلنا إليها.

***

جلسنا فوق تلكَ الأريكة التي انتقيناها عندما كنا نبحث عن واحدة لمْ تبتل من الأمطار، وحين رافعت رأسي قليلا أتطلع إلى النجوم، سألتني:

– هل تُحبهم؟

التفتُّ برأسي إليها مُتسائلاً:

– من؟

– النجوم.

ابتسمتُ لها وعدتُ أتتطلع إليهنّ وأنا أجيبها:

– بالتأكيد أحبهم، تروق لي تلكَ الأشكال التي معاً.

– نعم، إنها جميلة.

ثم التفتُّ لها وقلتُ ممازحا:

– كنتُ أظن قبلا أن النجوم بالسماء فقط، لمْ أكن أدري أنه يوجد واحدة منهن تجلس الآن بجانبي!

ابتسمتْ وبدا أنها تعتصر عقلها في محاولة لإيجاد كلمات مناسبة ترد عليَّ بها، لكنها لمْ تنبس بكلمة، مما جعلني أعاود النظر إلى السماء بينما أقول بغية إخراجها من ارتباكها:

– من الجيد أن الغيوم قد انقشعت عن هذا الجزء من السماء.

– لِمَ؟

– هل تحبين أن أقص عليكِ قصة قصيرة؟

– بالتأكيد!

– كانت هناكَ فتاة شديدة الجمال تُدعى (كاليستو)، مما جعل الإلهة (جونو) تسخط عليها وتحولها إلى دب ضخم، فهرعتْ (كاليستو) إلى الغابة لتعيش بها بعدما أدركتْ أنه إن وجدها أحد على حالتها الجديدة سيقتلها، وكان لـ(كاليستو) ابن يتجول من وقت لآخر في الغابة بهدف الصيد، فرأته (كاليستو)، ومع أنها دب إلا أنها نسيتْ ذلك وأخذتْ تدنو من ابنها وهي تسير على قدميها الخلفية مُترنحة في محاولة

لمعانقتـه، فامتـلأ قلبـه بالخـوف والفـزع، وأخـرج رمحـه وكاد أن يغرسـه في باطـن أمـه، إلا أن الإلـه (جوبيـتر) الـذي كان يراقبهمـا مـن السـماء أحزنـه المشـهد، وخشَّـى أن يَقتُـل الابـن أمـه فخطفهما مـن الأرض وحولهمـا إلى نجـوم في السـماء.

التفـتُّ لهـا برأسـي وهـي تُصغـي في شـغف، فأمسـكتُ كفهـا الأيسـر وأشـرتُ بإصبعهـا نحـو السـماء وأنـا أضيـف:

– لهـذا سميـت هـذه الكوكبـة بالـدب الأكبر..إشـارة إلى الأم، وهـذه بالـدب الأصغـر.. إشـارة إلى الابـن.

قلتهـا وتركـتُ كفهـا، فتأملـتْ النجـوم منبهـرة قبـل أن تعـاود النظـر لـي مُبتسـمة وهـي تقـول:

– أنتَ تحُب الأساطير اليونانية!

– أجل، أليست جميلة؟

– إنها جميلة جدا.

صمتتْ قليلاً ثم سألتني:

– هل لديكَ المزيد من القصص حول النجوم؟

– بالتأكيـد لـدي، مـا رأيـك أن أقـص عليـكِ البعـض منهـا بينمـا أقـوم بإيصالـك إلى منزلـك؟

– موافقة، لكن أُفضل أن نذهب سيراً على الأقدام!

– حسناً.

★★★

سرنا معًا في طريق طويل، بينما أقص عليها العديد من قصص الأساطير اليونانية، وكلما انتهيتُ من واحدة لا تلبث أن تطلب أن أبدأ في واحدة جديدة، كان الطريق قد فرغ تماماً من البشر، وكان هادئًا، ساكنًا، بلا أي حركة، سوى حركة قط صغير كان يحوم حول صندوق قمامة باحثاً عن شيء يأكله، وكان قد خيّم علينا الصمتُ قليلاً، في حين أخذتُ أحاول أن أزيد من جسارتي، وأخبرها بكلمات الحب التي أحجمت عن الخروج منذ بداية لقائنا، فلقد دعوتها للعشاء لأخبرها بحبي لها، حبها الذي اجتاحني منذ رأيتها أول مرة..

قبلاً لمْ أكن أؤمن أن هناك حبًّا من النظرة الأولى.

وبغتة، هوت الأمطار، فأشرتُ بإصبعي نحو مكان لنلجأ إليه ونختبئ وأنا أقول:

- يمكننا الاختباء هناك في هذا المكان لنتفادى المطر.
- لا يمكنني الاختباء من قطرات المطر، فكما تُحب أنتَ النجوم، أحبُ أنا المطر.

قلتُ لها وقد اعتلى وجهي بعض الخجل:

- لقد كنتُ أخشى أن تبتل ملابسكِ، لكن أنا أيضاً أحب المطر.
- لا عليكَ، كنتُ أمازحكَ.

أكملتُ طريقي بجانبها صامتاً أراقب الأمطار وهي تهوي وترتطم بالأرض..قالتْ:

– هل تعلم ماذا تمنيتُ دائما؟

سألتها في اهتمام:

– ماذا؟

– ألن تسخر مني؟

– لا، لن أفعل.

– كنتُ أتمنى دائما أن أبسط ذراعيّ وأنا أركض أسفل الأمطار رافعة رأسي، أستشعر قطرات المطر وهي تهوي على وجهي بينما يُلاحقني أحدهم.

ابتسمتُ لها وأنا أقول:

– اركضي.

– ماذا؟

– اركضي.

تطلعتْ لي برهة متفاجئة، ومن ثم أخذت تركض وهي تبسط ذراعيها، وركضتُ أنا من خلفها ألاحقها، وعندما كدتُ أن أمسك بها، أخذت تصرخ وتقهقه بصوت عالٍ وهي تزيد من سرعتها، سمحتُ لها بأن تسبقني قليلاً ومن ثم بلغتها وأحكمت قبضتي على كتفها وأجبرتها على الوقوف والاستدارة إليّ، قبل أن أنحني وأطوق فخذيها بذراعيّ وأرفعها عاليًا وأركض بها بضع أمتار وهي تصرخ خشية أن نهوي على الأرض معاً.

توقفتُ وأخذتُ أنزلها ببطء، وعندما استقرت قدماها على الأرض، استقمتُ مرة أخرى مُتأملاً عينيها، كانتْ تُطيل النظر إليَّ بعينيها الصغيرتين، قبل أن تتلفتْ حولها لتتأكد من خلو المكان من المارة، ومن ثم طوقتْ عنقي بذراعيها وهي تقول:

– شكرا، حققتَ لي أمنيتي.

قالتها قبل أن تُفاجئني يداها وهي تضغط على مؤخرة رأسي فتجبرني على الميل نحو وجهها فتلتقط شفتيّ بين شفتيها وتعتصرهما في قبلة طويلة تجمد من أجلها الزمن، وتجمدت معه خلاياي!

تركتْ شفتيّ بعد وقت لمْ يكن بمقدوري أن أحسبه، وأرختْ ذراعيها من حول عنقي وهي تنظر إليَّ باسمه قبل أن تستدير وتستكمل السير، دون أن تنبس بكلمة، بينما مكثتُ أنا مكاني واجمًا، أرمقها وهي تبتعد عني بخطوات.

أسرعتُ من خطواتي حتى ألحق بها، وعندما بلغتها سرتُ بجانبها وأنا أتجنب إضافة أي كلمة خشية أن يزول رحيقها من شفتي.

***

كانتْ قد توقفت الأمطار عندما بلغنا منزلها، فمكثنا أمام بوابة السور الحديدة نتطلع إلى بعضنا، وبدا أن كلًّا منا ينتظر حديث الآخر، وبعد هُنَيْهَة، قالت:

– هل تُريد أن ترى لوحتي، وتحتسي فنجان شاي؟

- أجل بالتأكيد.

دلفتُ معها إلى المنزل، وطلبتْ مني المكوث على أحد المقاعد لحين عودتها بعد أن عاونتني على نزع الجاكت المبلل عني وطوته فوق ذراعها ودلفت إلى إحدى الغرف بغية تجفيفه.

أخذتُ أتطلع إلى اللوحات المعلقة على الحوائط من حولي، كان أغلبها لوحات مشهورة، وانتبهتُ لوجود نسخة مصغرة من تمثالي المفضل (داود)، فنهضتُ من فوق المقعد ودنوتْ منه أتأمله..هُنَيْهَة، وبعدئذ رفعتُ رأسي قليلاً أتطلع إلى اللوحة التي تعلوه على الحائط، كانت لرجل في أواخر العشرينات، ذو وجه قوقازي رزين وعينين كبيرتين تتسمان بنظرة صارمة، وبدا أن هذه اللوحة إحدى لوحتها، وكدتُ أن أسألها عن الرجل الموجود بها عندما توجست أذني صوت أقدامها وهي تدنو مني، إلا أنني عندما التفتُّ برأسي ورأيتها قد بدلت ملابسها وارتدتْ قميص نوم قصير انتبهتُ لحافته من خلف الروب الأبيض الشفاف، أحجمت الكلمات عن الخروج!

مرتْ من خلفي وقبضتْ على مقبض الباب الذي كان بجانبي وفتحته وهي تقول:

- إنها غرفة الرسم خاصتي.

دلفتُ إلى الغرفة بينما كانتْ لا تزال واقفة مكانها وممسكة بمقبض الباب، كانت الغرفة خاوية من أي أثاث إلا من مقعد خشبي في منتصفها وأمامه مسند للوحات معلق عليه لوحة، وكانتْ الحوائط الأربعة مُكتظة باللوحات، تركتْ

مقبض الباب واقتربتْ مني وأخبرتني بأنهنّ جميعاً من رسمها، أخذتُ أمر بعيني سريعا عليهنّ قبل أن تشير بإصبعها نحو اللوحة المعلقة على مسند اللوحات وهي تقول:

– هذه هي اللوحة التي حدثتك عنها.

دنوتُ من اللوحة وأخذتُ أتأملها هُنَيْهَة، ثم أخبرتها كم هي جميلة ويروق لي منظر هذه السماء المتزجة بوجه تلك الفتاة الحزينة، صمت قليلاً وأضفت:

– حقا رائعة.

– إنني سعيدة أنها راقتْ لكَ.

أمضينا بعض الوقت نتحدث عن اللوحة وتفاصيلها، ومغزاها، ثم غادرنا الغرفة وجلستُ فوق الأريكة أنتظرها ريثما تعود.

أتتْ ومعها فنجانين من الشاي وبعد أن وضعتْ الفنجانين على المنضدة الزجاجية التي كانت أمامي، جلستْ فوق مقعد وثير على شمال الأريكة ووضعت فخذها الأيمن فوق الأيسر فتدلى طرفا الرُوب فظهر الجزء الأسفل من قميص نومها الأبيض الذي كان يُخبئ نصف فخذها مما جعلها تشده إلى الأمام قليلا لتخبئ ما استطاعت قبل أن ترفع عليه أحد أطراف الرُوب!

★★★

كان لملبسها الجديد إيقاع خاص بداخلي، فقد أتاح لي الانتباه لجمال ثدييها المنتفخين!

في الحقيقـة لقـد أتـاح لـي أن أمـر بعيـنيّ علـى كامـل جسـدها مُتأمـلاً كل مفاتنهـا!

كنـتُ واجمـاً شـارداً، أتسـاءل عمـا في مقـدوري فعلـه لـو كان هـذا الجسـد بـين ذراعـيّ!

ولكـني ابتعـدتُ ببصـري سـريعاً، عندمـا انتبهـتُ لعينيهـا تحملـق فيَّ مُتسـائلة!

وأظن أنها أدركت، فيما أُفكر!!

برهـة، ووجدتهـا قـد نهضـت والتقطـتْ فنجـان الشـاي مـن فـوق المنضـدة ولفـت مـن حولهـا وجلسـت بجانـبي حـد الالتصـاق ومدتـه نحـوي، فالتقطـه وأنـا أقـول:

– شكراً.

قُلتهـا وأنـا أشـعر بخفقـان قلـبي يـزداد، في حـين أستشـعر حـرارة فخذهـا الملتصـق بفخـذي!

– ارتشف الشاي حتى لا يبرد.

ارتشـفتُ رشـفة وأنـا أفتعـل انشـغال عيـنيّ بلوحـة (صنـدوق بانـدورا) المعلقـة أمامـي علـى الحائـط، بينمـا لا تـزال حـرارة فخذهـا تخالجـني!

مالـتْ برأسـها وأسـكنته علـى كتفـي الأيمـن، وصمتـت برهـة قبـل أن تسـألني:

– هل تروق لكَ؟

– باندورا؟..بالطبع تروق لي.

وضعتُ الفنجان علىِ المنضدة في هدوء، فقد ازداد ارتباكي إلى حد فقدان تركيزي كاملاً، وازداد ارتباكِ أكثر عندما دستْ ذرعها الأيسر خلف ظهري فبدا وكأنها تحتضنني!

وبعد برهة وبكف ذرعها الآخر، تحسست خصري، قبل أن تفك أحد أزرار قميصي وتدس أصابعها داخله، فتتحسس حرارة بطني، وكانت تنبعث رائحة زكية من شعرها الذي التصق بشفتيّ وأنفي.

رفعتْ رأسها لي ترمقني بنظرة بريئة، جميلة، مفعمة بالشوق والشبق!

وضعتْ قبلة خفيفة فوق ذقني وواحدة أخرى على شفتيّ، أغمضتْ عينيها وهي تدنو بشفتيها لتضع الثالثة، فأرخيتُ قبضة شفتيّ مما أتاح لها أن تلتقط السفلي وتعتصرها، حقا لستُ أدري من منا الذي كان يعتصر شفتي الآخر!

ولكن بعد وقت ليس بقليل اعتدلتْ ونهضتْ واجتذبتني من ساعدي بقوة، فنهضتُ ودلفتُ معها إلى إحدى الغرف، و...!

لا أدري كم مكثتُ بين ذراعيها وما حدث، فما حدث بعد ذلك لمْ يكن بمقدور عقلي تدوينه..!!!

★★★

استفقتُ من نومي، واعتدلتُ مستندا بذراعي على الوسادة، تساءلتُ في الوهلة الأولى، أين أنا؟، ولكني لمْ ألبث حتى تذكرتُ كل ما حدث أمس، أخذتُ أجوب بعينيّ متطلعاً إلى كل شيء

حولـي، فما حـدث أمـس شـغلني عـن التطلـع إلى محتويـات الغرفـة أو التفكـير حتـى.

استـقرتْ عيـنيّ علـى دفـتر رسـم فـوق الفـراش.. بجانـبي، فالتقطته وتأملـتْ اللوحة المرسـومة:

– إنها صورتي!

يبـدو أنهـا رسمتـني وأنـا غـارق في نومـي ورأسـي يتوسـد الوسـادة بينمـا ذراعـي الأيمـن مختبـئ خلفهـا.

وضعـتُ الدفـتر جانـبي مـرة أخـرى، قبـل أن أنتبـه إلى ملابسـي وقـد وضعـتْ بعنايـة علـى حافـة الفـراش، فنهضـتُ عاريـاً ، وأخـذتُ أرتديهـا.

كـدتُ أن أغـادر الغرفـة إلا أنـني عندمـا بلغـتُ البـاب تراجعـتُ خطوتـين إلى الخلـف، فلقـد انتبهـتُ لـبرواز كبـير موضـوع بإهمـال بجـوار الحائـط، فدنـوتُ منـه والتقطتـه أتأمـل الصـورة الـتي بـه، كانـتْ صـورة لنفـس الشـخص الـذي رأيتـه أمـس في اللوحـة..

– نعم إنه هو!

وبـدا لـي أنـه أخوهـا، فقـد كان هنـاك تشـابه واضـح بينهمـا. غـادرتُ الغرفـة أبحـث عنهـا، فتوجسـتُ صـوتْ ارتطـام أطبـاق مكتـوم وخريـر مـاء، فتتبعـتُ صـوت الخريـر، حتـى بلغـتُ غرفـة ببـاب مفتـوح علـى مصراعيـه، دلفـتُ منـه، فـإذا بهـا واقفـة وممسـكة بمقـلاة بيديهـا تُطهـي فيهـا البيـض، توقفـتُ وملـتُ بجانـبي مسـتندا الحائـط، فانتبهـتْ لـي وقالـت وقـد ارتسـم علـى وجههـا ابتسـامه هادئـة..

– صباح الخير.

– صباح النور.

– هل نمتَ جيداً؟

– أجل، لكن أظنك لمْ تنمي جيداً!

– لمَ؟

– اللوحة..الملابس..الطهي!

– لقد اعتادتُ على الاستيقاظ مبكراً كل يوم..بمناسبة اللوحة.. هل راقتْ لكَ؟

دنوت منها وأحطها بذراعيّ ووضعتْ قُبله أسفل خدها الأيسر وأنا أقول..

– بالطبع.

فالتفتْ برأسها ووضعتْ واحده على شفتيّ، وبينما لا أزال أطوقها بذراعيّ، أضفتُ..

– خطفتيني من وجودي أمس، فنسيتُ أن أخبرك أنني أحبك.

أشرقتْ قسماتها ومن ثم قالت في اهتمام..

– أنا أيضا نسيتُ أن أخبركَ بشيء مهم!

كنتُ قد أرخيتُ ذراعيّ عنها وعدتُ للخلف مُستندا بظهري الحائط، بينما أضافتْ..

– في الحقيقة لقد تعمدتُ ألا أخبركَ حتى لا أعكر صفوك.

– وما هو؟

– إنني متزوجة.

صعقتُ من عبرتها وخيل إليَّ أن أذني قد خدعتني، ولكن تسمرتُ مكاني واجماً، أتتطلع إليها بعين جاحظة وهي تُضيف..

– أننا على وشك الانفصال، أو نكاد نكون انفصلنا، فهو لا يقطن معي منذ فترة طويلة، وقريباً سننتهي من إجراءات الطلاق، أدري أنكَ منزعج أنني لمْ أخبرك، لكن كما قلتُ لك لمْ أخبرك لكيلا أعكر صفوك.

مكثتْ برهة تنتظر مني ردا، وعندما وجدتني قد آثرتُ الصمت، أضافتْ..

– إنه الشخص الذي كنتَ تتطلع إلى لوحته أمس.

مكثتُ هُنَيْهَة، أتطلع إليها واجماً..ودون أن أنبس بكلمة غادرتُ المطبخ ودلفتُ سريعا إلى الغرفة أرتدي الجاكتْ الذي لمْ أكن قد ارتدايته بعد، فدلفتْ خلفي وأخذتْ تحدثني وهي تحوم حولي..

– صدقني، خشيتُ أن أزعجكَ..لقد أخبرتك بالأمر على أي حال!

أبعدتها بكفيَّ عندما وقفتْ في مدخل باب الغرفة تمنعني من مغادرتها..توجهتُ إلى باب المنزل وأخذتُ انتعل حذائي..

– هل كل هذا لأني أخبرتك بأني متزوجة، قلتُ لك لقد انفصلنا، لمْ يتبقَ سوى الإجراءات القانونية.

كنتُ قد انتعلتُ حذائي فقبضتُ على مقبض الباب وفتحته، وكدتُ أن أغادر إلا أنها قبضتْ بقوة فوق ساعدي واجتذبتني وهي تقول..

- أنتظر هنا وأجبني، لِمَ كل هذا السخط والتذمر؟

فأرخيتُ قبضتي من فوق مقبض الباب وأنا أجز أسناني، واجتذبتُ ذراعي من قبضتها بقوة، وأنا أصيح فيها قائلا..

- لأنكِ جعلتيني خائن، وأنا لمْ أخن أحد من قبل..كان يجب عليكِ أن تنفصلي تماما عن زوجك، قبل أن تُقيمي علاقة مع أحدهم.

قلتها وأنا أرشقها بنظرة استحقار، ثم غادرتُ مسرعاً، غير مُكترث بصوتها الذي يناديني باسمي من الخلف.

غادرتُ منزلها وأنا عازم ألا أعود إليه مرة أخرى!

★★★

في عربة الأجرة، أخذتْ تحاول الاتصال بي، فأغلقتُ هاتفي.. وعندما وصلتُ إلى منزلي وأعدتُ تشغيل هاتفي، وجدتُ العديد من الرسائل التي أرسالتها في محاولة لإرضائي، تجاهلتهم جميعاً إلا واحده قالتْ فيها..

«ألا يشفع عندك، كل ما حدث بيننا؟»

فأجبتها برسالتي..

«لا..لا يشفع عندي أي شيء»

ولم تزعجني بعدئذ بمثل هذه الرسائل لأني بدلتْ رقم هاتفي.

***

قابلتها صدفه أكثر من مره في أماكن عدة، ودائما كانتْ تدنو مني وتحاول محادثتي، ولكني كنتُ أتجاهلها وابتعد.

لازمني شعور بعدئذ بأني كنتُ قاسي عليها، إلا أنني امتنعتُ عن الاستسلام لهذا الشعور، ومع أنني أحببتها حقا، إلا أنني تحملتُ على نفسي من أجل مبادئي..

ومن حسن حظي أنها لم تكن تعلم عنوان منزلي وتجنبتُ الظهور في تلك الأماكن التي تذهب إليها.

من المؤسف أن يختلف قلبي وعقلي،

كل منهما يريد شيئاً آخر!

***

بعد عدة أسابيع وبعد انتهائي من العمل تجولتُ في الطرقات حتى بلغتُ بائع الجرائد الذي تعودتُ أن أشتري منه جريدة قبل أن أعود إلى منزلي، التقطتُ إحدى الجرائد بيدي وناولته ثمنها، ووقفتُ أتصفحها فإذا بي أقرأ هذا العنوان..

«انتحار الفنانة ...،

وأثبت الطب الشرعي وجود جنين في رحمها!»

تسـمرتُ مكانـي واجمـاً وقـت طويـل، ومـن ثـم اسـتقلّيتُ عربـة أجـره وغصـتُ في المقعـد الخلفـي وأنـا أرخـي ربطـة عنقـي.

توقفت بـي العربـة أمـام منزلـي، فنزلـتُ منهـا مسـرعاً بعـين دامعة وارتقيـتُ السـلالم مترنحـاً، قبـل أن أدلـف إلى الشـقة وألقـي بحقيبـتي أرضـاً، وأرتمـي علـى أقـرب مقعـد.

مكثتُ مكاني ساعات، أفكر، وأفكر، وأفكر..وأبكي!

قبـل أن أنهـض مـن فـوق مقعـدي وأدلـف إلى غرفـة مكتـبي، والتقطـتُ رزمـة الأوراق هـذه وأضعهـا علـى مكتـبي وألتقـط قلمـي وأجلـس علـى مقعـدي عازمـاً أن أكتـب قصـتي معهـا، كاعـتراف مـني عـن جريمـتي!

جريمة قتلي لطفلي وحبيبتي!

بعد أن قررتُ الانتحار..!!!

كبرياء الحبّ

لمَ كل هـذا السـخط الـذي يعتلـى وجهـكِ، كلمـا تقابلنـا صدفـه في إحـدَى الطرقـات؟

لمَ لمْ تعـدي تسـتوقفيني وتسـتمهليني، لتصافحيـني وترحـبي بـي بوجَـه باسـم مثلمـا كنـتِ تفعلـين مـن قبـل؟

لمَ بـات مـن السـهل عليـكِ أن تمـري بجانـي مكتفيـه برشـقي بتلـكَ النظَـرة الناقمـة قبـل أن تشـيحي بوجهـك بعيـدا لترمقـي شـيئاً آخـر كـي تظهـري لـي عـدم اكتراثـك؟

هـل هـذا لأجـل أخطـاء اقترفتهـا وليـس بمقـدورك غفرانهـا، أم مـن أجـل خطـأك الوحيـد الـذي لازلـتِ لا تدركيـه؟

نعم أخبرتك يوماً بأني أهتم بإحداهنّ ، والتي كنتِ تمقتيها بشدة ولا تطيقي سماع اسمها، وحاولتِ كثيرا أن تُبعديني عنها، وكنتِ تسأليني..

– بربـك، لمَ تلـكَ الفتـاة بالـذات، يوجـد أخريـات أكثـر جمـالاً وأكثـر أناَقـة؟

لطالمـا أدركـتُ دائمـا أن محاولاتـك تلـك كانـتْ لتُفرغـي قلـبي تمهيـداً للولـوج بـه!

مع أن قلبي كان بالفعل فارغاً ينتظرك..ولكنك لمْ تفعلي!

فكبريائك أبى أن يُتيح لكِ الإفصاح عن حبي الكامن بقلبكِ!

فضلتِ الكتمان!

ليتكِ كنتِ تدركين أن القلوب إن خالطها الكتمان..تمزقتْ.

والنفوس إن شوهها الكبرياء..تبددتْ.

لكان حالنا أفضل!

مكثتُ أنتظر حبك الذي لا يأتي، حتى وجدتني أصطف بين المدعوين لحفل خطبتكِ!

دنوتْ وصافحتهُ مُهنئاً..

فضلتِ أن تستبدليني على أن تفصحي بما داخلكِ!

هل يسهل عليكِ أن ترتمي بين ذراع رجل آخر على أن تبوحي بحبكِ لشخص تخاليه مُذنباً؟

وصافحتك أنتِ الأخرى وأنا أفتعل ابتسامتي..

وبدا أنكِ قرأتِ سؤالي عندما تأملتُ عينيكِ..بالطبع لمْ تجيبي!

وحتى بعد عودتي إلى مقعدي وانتباهي لتحديقك الطويل فيَّ.. لمْ تُجيبي!

تواريتِ بنظرك بعيداً، وانشغلتِ بعدئذ بتقبيل المهنئات، فنهضتُ وغادرتُ دون أن تريني، فقد بات واضحاً أنه لا جدوى من مكوثي، وانتظاري.

فلم يعد يحق لي الانتظار!

★★★

أتناساكِ..

فتخبرني إحداهنّ أنكِ كنتِ تُحبيني..تعشقيني!

لكنك لا يمكنكِ التغاضي عن أفعالي!

إن كنـتِ أحببتيـني حقـا، فلِـمَ لمْ تخبريـني..لِمَ لمْ تلمحـي بالأمـر حتـى؟

لأنكِ لا يمكنكِ التغاضي عن أفعالي حقاً؟

أم منعكِ كبريائك؟

كل ما أردته منكِ أن تصغي إلى أقوالي، لعلكِ تدركين أفعالي.

إنه كبريائك يا عزيزتي..

إنـه كبريـاء حبـكِ الـذي حرمـني مـن أن أضمـكِ إلى صدري..ليسـت أفعالي!

لستُ أنا المُذنب كما تظنين..بل أنتِ!

والآن تحاولي التقرب برسائلكِ بعد أن تلاشى حبي!

رجاء..

لا تلملمي أجزاء قلبي المحطم، حتى لا تجرحي أصابعكِ!

مهلاً..!

كنتُ أظنُ أن من تجرع من كأس الألم ،

لا يمد به نحو غيره..

حتى أثبتِ أنتِ العكس !

دموع التماسيح..!

أيقظني صوتها من نومي..

– سآتي اليوم، هل ستنتظرني؟

– بالطبع، سأكون موجودًا في موعد وصول القطار.

أنهيتُ معها المكالمة، ونهضتُ من فوق فراشي أرتدي ملابسي تأهباً للقاء.

★★★

تأخرتُ عن موعدي دقائق بسبب زحمة المواصلات، فنزلتُ من عربة الأجرة وزدتُ من سرعة خطواتي..

دلفتُ من بوابة محطة القطار، ونزلتُ السلالم وعينان تجوبات بحثا عنها، فإذا بها قد اصطفتْ بجانب سيدتين على أريكة الانتظار. دنوتُ منها وأنا أراقبها تعبث بهاتفها، قبل أن تنتبه إليَّ فتنهض لاستقبالي.. في ترحيب حار.

– أعتذر تأخرتُ بسبب...

قاطعتني قائلة:

– لا عليكَ، لمْ أنتظر سوى دقائق.

– حسنا، دعينا نُغادر المحطة.

أخبرتني بأن قدميها تُؤلمها لتعثرها في أحد الأحجار، فحملتُ عنها حقيبتها، وارتقينا السلالم وهي تستند إلى ذراعي.

وأمام بوابة المحطة، أخذتُ أجوب بعينيّ بحثا عن أريكة فارغة، فإذا بها تُشير إلى واحدة..

أجلستها على الأريكة، وجثوتُ أمامها وانتزعتُ فردة حذائها عن قدمها التي تؤلمها وأخذتُ أدلكها..

بينما تُحيطني إيماءت وهمسات المارة، وضحكات مكتومة من بعض الفتيات اللاتي كنّ تراقبننا مُنذ لحظة خروجنا من بوابة المحطة، قالت:

– أتدري..أنكَ أحن إنسان رأيته في حياتي.

ابتسمتُ قائلا:

– أدري أنكِ أرق إنسانة رأيتها في حياتي.

اكتفتْ من تدليك قدمها، فأرحتها على الحذاء ومن ثم نهضتُ وجلستُ بجانبها على الأريكة.

مكثنا دقائق خيّم علينا فيها الصمت..

بينما كنتُ أوارى النظر عن تلك الفتيات اللاتي لا زالت أعينهنّ تتطلع إلينا، بينما أتساءل إن كنّ يعتقدنّ أننا حبيبان!

– يكفي هذا، لنتحرك.

قالتها فجثوت مرة أخري وعاونتها على انتعال حذائها، كادتْ تمنعني بيديها ولكني أصررت على أن أكمل ما بدأت.

ركبنا عربة أجرة بعد أن اتفقنا على الذهاب إلى إحدى المقاهي..

توقفتْ بنا العربة أمام المقهى.

جلسنا على مقعدين مريحين، مواجهين لبعضهما، وبيننا منضدة صغيرة زجاجية وضعتْ عليها حقيبتها وهاتفها.

أخذتُ أتأمل تفاصيلها هُنَيْهَة، قبل أن أسألها:

- كيف حال قدمكِ؟

- إنها أفضل الآن.

أحضر لنا العامل فنجانين من القهوة، قبل أن تحدثني عن الآلام التي تأبى أن تبرح قلبها..لتذوق طعم الحب من جديد، ورفعتْ يديها وأرختهما تعبيرًا عن الحيرة وهي تقول.

ليس بمقدوري أن أصف لك ما يدور بداخلي، ليت بمقدورك الولوج بداخلي برهة، لتدرك كم المعاناة التي تترسب فوق قلبي.

كانتْ أخبرتني ذات مرة عن شاب أحبته أربعة أعوام، أحبته بجنون، ولكنه أذاقها من كأس الألم، عندما تفاجئت بخطوبته!

فعادتْ تقص عليَّ قصتها مع هذا الشاب مرة أخرى، ولكنها زادت تفاصيل أكثر لم تبح بها من قبل، ومن ثم تنهدت وأخبرتني عن صديقها الجديد الذي يحاول التقرب منها دون جدوى، فلا تدري إن كان بمقدورها أن تُحب مرة ثانية، فقد باتتْ تخشى

الحب والمعاناة التي تلازمه، التقطتْ هاتفها من فوق المنضدة وعبثتْ فيه قليلا قبل أن تمد يدها به نحوي وهي تقول:

– هذا هو.

التقطتُ الهاتف وتأملتُ الصورة لبرهة وأعدتُ الهاتف لها ثم قلتُ :

– أتدرين، إنني من المؤمنين بأن هذه الحياة عبثية، لا تكترث لسعادتنا، ولا تدرك حتى معنى الألم الذي يفطر قلوبنا، ولو كانتْ تدرك، ما كانتْ لتسمح لقلوب الأبرياء أن تتحطم فوق صخورها، لذا أرى أنه ينبغي لنا أن نقتنص السعادة منها بأنفسنا، ولا ننتظر أن تقدمها هي لنا، لأنها لن تفعل أبداً.

تنهدتْ بقوة، بينما أراقب الحزن يعتلي وجهها، قبل أن أضيف قائلاً:

– أرى الألم يتبدى في عينيكِ، أعلم كم هو يضنيكِ، ويثقلكِ، لكني أري أيضا في أعماقكِ طفلة عاشقة للحياة، تريد أن تُحطم تلك القطبان التي أسكنتها خلفها، لِمَ لا تسمحين لها الخروج ؟

– إن برحتْ سجنها..ستُقتل.

– وإن مكثت مكانها..ستحتضر.

– إذًا لا فرق، لتبقى مكانها أفضل.

– بل يوجد فرق، في الخارج هناكَ على الأقل..أمل.

ابتسمتْ وقالتْ:

- كفاكَ فلسفة..لقد اشتقتُ لكَ.

- أنا أيضًا، لقد أسعدني وجودك.

صمتتْ قليلا ثم سألتني مبتسمة:

- وماذا عن قلبك؟

ابتسمتُ بينما أرفع كفيَّ عاليًا تعبيراً عن الحيرة وأقول:

- باتْ مُفعم بالخواء!

وزاغت عيناي على لوحة مُعلقة على الحائط وأنا أضيف:

- لكن لدي أمل أن تُنسخ آلامي مع الوقت.

تبادلنا بعدئذ حديثًا طويلًا في مواضيع عدة، قبل أن تخبرني بأن عليها العودة، فنهضنا وغادرنا المقهى..

ودَّعتُها وهي تركب العربة عائدة إلى منزلها، وعدتُ أنا الآخر إلى منزلي.

هكذا كانت صداقتنا..بريئة!

★★★

بعد عدة أشهر سنحت لنا الفرصة أن نتقابل مرة أخرى، تسكعنا في الطرقات، كانت تسير بجانبي تتطلع لوجوه المارة، بينما أنا شارد أراقب عصافير الجنة التي تمر من جواري، سألتها:

- هل راقبتِ عصافير الجنة من قبل؟

انتبهتْ لي ثم أخذت ترمق العصافير التي تمر بجوارنا وهي تسأل..

– لمَ؟

– أنتِ تشبهينها.

سألتني في تعجب:

– كيف؟

– يُمكنها أن تُحلق عاليًا وترمقنا صغارًا، ضعفاء، عاجزين عن تقليدها، ومع ذلك تهبط لتطير على مسافة قريبة من الأرض وتجتاز أقدام المارة و إطارات السيارات دون أن تتأذى، إنها تحب المخاطرة، وتُريد أن تثبت لنا أنها قوية، وأن حجمها الضئيل، لا يمنعها من أن تكون متميزة، وهذا ما تفعلينه أنتِ دائماً، لهذا أنتِ تشبهينها، لكن ينقصكِ شئ واحد..الحب.

وقفت وقبضتْ على ساعدي تستوقفني معها، فوقفت مواجهًا لها وأخذتُ أتطلع إليها وهي تتأملني بعينيها الصغيرتين، قبل أن تُؤكد:

– نعم، إنكَ مُحق!

مكثنا هكذا نتأمل أعين بعضنا في منتصف الطريق! القلوب الواهنة..المفعمة بالخواء، لا يمكنها أن تحيى دون حب تتغذى عليه.

أدركتُ تلك الحقيقة عندما اجتاحتني نظرة عينيها وهي تتأملني بابتسامة جذلة،

بينما أشعر بخفقان قلبي يزداد شيئاً فشيئاً.

في مساء ذلك اليوم لمْ يأتني النوم، وشعرتُ وكأن نظرة عينيها، ولجتْ داخلي، وأخذتْ تجري مع دمائي.

فأبقيتني ساهراً!

★★★

وفي أحد الأيام اتصلت بي، وطلبتْ مني أن نذهب لنقضي وقتنا في مكان جديد، وأنها تريد أن تخبرني بشيء مهم، قبل أن تقول:

– حسنا، أين نذهب؟

– البحر، أحبُّ البحر.

– حسناً، لنذهب إليه غدا.

في اليوم التالي تقابلنا واستقللنا الحافلة، جلستْ هي بجانب النافذة، وجلستُ أنا بجوارها، تحدثنا قليلاً، قبل أن يرون عليها الوسن فتوسدتْ ذراعي وغطتْ في نومها العميق، وبقينا هكذا إلى أن وقفت بنا الحافلة، غادرنا الحافلة ثم استقللنا عربة أجرة لنصل إلى البحر.

جلسنا متجاورين على واحدة من صخور الشاطئ نتأمل البحر، ثم قلتُ:

– حسنًا، ما هذا الأمر المهم الذي يتطلب الجلوس أمام هزع البحر؟

ابتسمتْ وهي تخبرني في هدوء وبصوت خافت:

– أنا أحبك.

لا أدري لمَ ارتعد جسدي عندما سمعتُ عبارتها وأصابني الذهول، وشَعرتُ بحرارة أذني تزداد، وانتابني الارتباك وشيء من الخوف..لمْ أنبس بكلمة، حتى حفزتني قائلة:

– أدري سبب صمتك..رجاء اطمئن لي لن أتسبب أبدا في أذيتكَ!..هل تُحبني؟

– بالطبع أحبك.

غادرتْ الجملة فمي عفوياً، فازداد خجلي، وازداد وجهها إشراقا، قبل أن تسألني:

– هل علمتَ الآن لمَ أتينا إلى البحر؟

فأجابتها ممازحاً، وأنا أتأهب للهروب بعيداً خشية أن تضربني:

– لا، كان يمكنكِ أن تقوليها هُناك، لتوفري علينا عناء السفر.

قلتها وبدأتُ في الركض، فنهضتْ من خلفي مُهتاجة..تُطاردني!

وهكذا انقلبتْ صداقتنا إلى حب، وازداد تعلقي بعدئذ شيئاً فشيئاً.

مرتْ بيننا شهور كنا قد اتفقنا فيها على كل شيء: تفاصيل حفل الزفاف!

الحياة بعد الزواج، وحتى الطلاق...!

فقد تعاهدنا إن فشل حبنا قبل الزواج، نبقى أصدقاء، وإن فشل زواجنا، نبقى أصدقاء!

★★★

وبعد فترة بدأت العلاقة تضطرب شيئا فشيئاً، أخبرتها حينئذ عن طريق الهاتف، إن كانتْ لا تُحبني وتشعر بعدم الرضا عن وجودها معي عليها أن تخبرني، ثم أضفتُ:

— في بعض الأحيان أشعر وكأن حبكِ لي مُجرد محاولة للهروب من شيء ما!

— إنني فقط مُضطربة قليلا..

— حسنا، دعينا نبتعد لبعض الوقت.

أجهشتْ بالبكاء وهي تقول:

— صدقني أنا أحبك ولا أريدك أن تبتعد، أحتاج منك أن تتحملني حالتي هذه لبعض الوقت.

فبكيتُ لبكائها وأخبرتها بأني لن ابتعد عنها أبدًا.

ناكفني ليلتها شعور بالذنب لأني أسأتُ الظن بها، وقلتُ في نفسي:

— لقد كنتُ فظًّا في كلماتي.

★★★

بعد عدة أيام ذهبتُ إلى أحد المتاجر واشتريتُ لها هدية، تعبيراً عن حبي واعتذاري، وبينما أنا جالس على الأريكة

الأخـيرة بالحافلة..عائـد إلى منزلـي، ظهـرتْ وهـي تدلـف مـن بـاب الحافلـة، فابتسـمتُ وكـدتُ أن أنهـض وأسـتقبلها وأعطيهـا هديتهـا، إلا أن شـخصًا دلـف خلفهـا وحدثهـا وأومـأ لهـا أن يجلسـا فـوق مقعديـن انتقاهما..إنـه نفـس الشـخص الـذي أرتـني صورتـه علـى هاتفهـا، وأخبرتـني أنـه صديـق يحـاول التقـرب منهـا!

جلسـتْ بجانبـه، وأخـذا يتبـادلان الحديـث والضحـكات، قبـل أن تتوسـد ذراعـه وتُسـكن رأسـها فـوق كتفـه..!!!

إنها تفعل معه ما فعلته معي!

ظلـتْ عينـاي الدامعتـان، تراقبهمـا وتتأمـل أفعالهمـا حتى اسـتقرتْ الحافلـة، فنهضـا وغادراهـا بينمـا اختبـأتُ برأسـي خلـف ظهـر المقعـد الـذي أمامـي حتـى لا تنتبـه لـي.

نزلـتُ بعدئـذ مـن الحافلـة وعـدتُ إلى منزلـي وحقيبـة الهديـة تتـدلى مـن أصابعـي، وفي غرفـتي أخرجـتُ الهديـة ووضعتهـا أمامـي علـى الأرض وجلسـتُ بجوارهـا وظهـري مُسـتند الحائـط أتأملهـا مُتسـائلاً، وقـد سـالتْ دموعـي:

لمَ؟

لمَ تفعل معي ذلك، ألم تكن تحبني؟!

لقد أجهشتْ البكاء عندما اقترحتُ عليها أن نبتعد،

هل كان بُكاؤها خدعة؟

هل كانتْ دموعها زائفة؟

دموع تماثل تلكَ الدموع التي تذرفها التماسيح بعد أن تأكل ضحيتها لتتخلص من أملاحها؟

كنتُ أظن أن لغة الدموع لا تكذب!

كنتُ أظن أن صوت الأنين والنشيج لا يُحاكى!

لِمَ الخداع، لِمَ الكذب؟

لقد كنتُ صادقًا معها،

لقد أخبرتني يوما عن آلام استقرتْ بداخلها بسبب حبيبها الذي فارقها، هل تعلم هي أن ما تفعله الآن معي, يُماثل ما فعله هو معها؟

ما الفريق بينهما؟!

كل منهما أسكن خناجر قسوته في قلوب أحبتهُ.

بكيتُ بحرقة، ونعتُ نفسي، وأنا لمْ أنعتْ نفسي من قبل بالساذج!

ساذج لأني ظننتُ نفسي قد تعلمتُ من صداماتي شيئاً، فصدمتني هي الأخرى، فكشفتْ خطأ ظني، وحقيقة قلبي الواهن، قلبي الذي خذلني، ولا زال يخذلني! قلبي الذي تخلص من عذاب فراق إحداهنّ، بأن يُلقي بنفسه في جحيم أخرى!

لِمَ يا قلبي، لقد كنتُ اكتفيتُ بوحدتي، وبخوائي.

لِمَ لمْ تبقَ وحيداً؟

نعـم يـا رفيقـي، الوحـدة مؤلمه..لكنهـا غـير مميتـة! تمنيـتُ لـو كان بإمكانـي أن أدرك حقيقتهـا مُنـذ البدايـة، مـا كنـتُ سمحـتُ بـأن تكـون هـذه النهايـة.

كـم أتمنـى لـو كانـتْ حقيقـتي، هـذه، حلمـاً، وهماً،سـراباً، لأسـتفيق علـى حيـاة جديـدة، غـير مؤلـة، غـير موجعـة!

كفكفتُ دموعي، بينما أواسي قلبي قائلاً:

لا عليكَ، لا عليكَ يا رفيقي..

فنحـنُ نحتـاج أحيانـاً أن نرتطـم في قسـوتهم، حتـى نتفـادى أمثالهم مُستقبلا!

ينبغـي أن ننسـاها، أدرك أن النسـيان لا يتـم، إلا أذا أخـذ الكثـير مـن ذاتنـا معه،لكـن ينبغـي! فبعضهـم لا يسـتحق عذابنـا، لا يسـتحق آلامنـا.

★★★

لازمـني بعدئـذ شـعور بالخـزي والازدراء، ولم أحـاول التواصـل معهـا، وانصـرم أسـبوع علـى هـذه الحـال، حاولـتُ فيـه جاهـدا أن أنسـاها.

من المؤسف أن القلوب النقية، تعشق سريعاً، وتمقت ببطء!

اتصلـتْ تسـأل عـن حالـي بينمـا أجيبهـا في شـيء مـن الحنـق وبكلمـات مُفتعلـة أنـني بخـير، فقالـتْ:

— أريد أن أخبركَ بشيء، لكن أخشى حزنك.

سـالتْ دموعـي سـريعاً وأنـا أخبرهـا بصـوتْ حزيـن، حاولـتْ أن أجعلـه طبيعيـاً:

– لا تقلقي، أخبريني فقط.

– لقـد تقـدم شـخص لخطبـتي، ووالـدي وافـق عليـه، ولقـد ناسـبني الأمـر.

اعتقـدتُ بـأن الشـخص الـذي كان بصحبتهـا، هـو مـن تقـدم لهـا، فـإذا بهـا تصـف لـي شـخصًا آخـر، فضحكـتُ سـاخراً خلسـة، بينمـا أقـول في نفسـي: يبـدو أنـه هـو الآخـر كشـف حقيقتها..فابتعـد عنهـا!

– هل أحزنكَ ذلك؟!

– بالتأكيد لا، أنا أتمنى لكِ السعادة، والتوفيق.

– عمومـا، لقـد أخبرتـكَ مـن قبـل، أنـه كان كل منـا يبحـث عـن شـخص آخـر بداخـل الثانـي.

– أنتِ لمْ تقولي لي ذلك!..قلتِ أنكِ تحبينني و...!

امتنعتُ عن إكمال كلماتي وصمتُّ برهة أفكر، قبل أن أضيف..

– لا أريد عتابك على شيء، ما حدث..حدث.

وأنهيتُ المكالمة بعدئذ في اقتضاب.

***

لا يمكنـني أن أتعايـش، وأتأقلـم مـع هـذا الأمـر كمـا تريـد هـيّ، نعـم لقـد تعاهدنـا إن فشـل حبنـا نُبقـي علـى صداقتنـا، ولكـن لمْ يتضمـن عهدنـا، الخـداع والكـذب.

لذا قررتُ أن أرحل بلا عودة!

وبعـد أن شـعرت برحيلـي، أرسـلت إلـيَّ عـدة رسـائل، حاولـتْ أن تلقـي باللـوم علـيَّ فيها..لكـني لمْ أكـترث،

فهي لا تدرك ما اقترفته في حقي!

ولا أكترث إن أدركتْ.

كنتُ أيقنتُ وقتئذ، بأني لمْ أعد أحبها..أو ينبغي ألا أفعل!

النقطة السوداء

لا أدري لمَ يســهل عليهــم أن يراقبونــا نهــوي مــن فــوق أســوار الآمــال الــتيَ بنيناهــا معًــا، دون أن يفعلــوا شــيئاً؟!

يــا لهــا مــن صخــور قاســية حُطــم عليهــا قلــبي فتناثــرتْ أجــزاؤه حولــي كجــذوات مُلتهبــة.

يــا لهــه مــن خــزي تملكــني، وأنــا أجــوب في ذكرياتــي، وأقلــب صفحاتــي معهــا

وأتأمــل كلماتهــا فتتبــدى لــي حقيقتهــا! إنــني آســف! آســف لقلــبي، علــى اجتذابــه وإجبــاره علــى الجثــوم أمــام مــن لا يســتحق الجثــوم لــه!

قلــبي الــذي أغمــدتْ فيــه خناجرهــا، قلــبي الــذي زجــرتْ بــه بعيــدا ليرتطــم بحائــط القســوة.

إنــني آســف أيهــا القلــب الطيــب، الواهــن. آســف لكونــي ســبب مُعاناتــك؛ فأنــا مــن اخــترتُ، وأنــا مــن قــررتُ، وأنــتَ مــن أحببــتُ، وتألمــتُ.

إنـني آسـف يـا قلـبي علـى كل برهـة، شـغفكَ فيهـا حـب زائـف، لا تحزنــي يــا قلــبي، فلــو كانــوا يدركــون نقائــك، لخــروا أمامــك راكعـين، خاضعـين، خاشـعين، يقدمـون لـك القرابـين ليتقربـوا منـكَ.

لا يـا قلـبي، لا تُسـمعني أنينـك، لا تُشـعرني بنشـيجك، لا تـذرف دموعـك، فالوجـود لا يسـتحق قطـرة واحـدة منـه تطهـره، بـل أسـمح للدمـوع بالولـوج إلى داخلـكَ لتطهـرك مـن سـراب حبـه.

★★★

طهري قلبي أيتها الدموع..

طهــري وأزيلــي حبهــا وإن لمْ تقــدري أن تزيليــه، فاطمســيه واســجنيه!

اسجنيه في أعماق قلبي،

في سـجن بـلا أبـواب، ليمكـث فيـه إلى الأبـد، واحجـبي عنـه النـور، لتكـون هـذه النقطـة السـوداء بداخلـه، وليكـون هـذا إثمنـا الوحيـد، وخطيئتنـا الكـبرى.

سيدة الحب

اقتربـتُ مـن شـاطئ البحـر الـذي اكتـظ بالآلهـة والبشـر متسـائلاً عـن سـبب تجمعهـم، قبـل أن أنتبـه إلى صدفتـكِ تدنـو وهـي تعتلـي مـوج البحـر، وعندمـا بلغـتْ الشـاطئ فُتحـتْ، وخرجـتِ أنـتِ منهـا عاريـة كاللؤلـؤة، فأحاطـك الجميـع مطأطئـين رؤوسـهم خشـوعاً أمـام جمالـكِ، ووقـار قسـماتك، أخـذوا يثنـون عليـكِ في أناشـيدهم الـتي غنوهـا، بينمـا تنبعـث الألحـان مـن آلات عـذراوات الشـاطئ..

ابتسـمتِ للجميـع مُعلنـة عـن سـعادتكِ باسـتقبالهم لـكِ وأنـتِ تولديـن، نظـرتِ لـي وأنـا أقف أسـفل شـجرة التـوت ليس بعيـدًا عنكِ.

فتغلغلـت الرهبـة بداخلـي ممـا جعـل خفقـان قلـبي يـزداد، وانحنيـتُ أمـام سـحر جمالـك قبـل أن أسـتقيم مـرة أخـرى وأرمـق ابتسـامتكِ وقـد ازدادت إشـراقاً..

أحاطتـكِ إحداهـن بوشـاح أحمـر لتخـبيء مفاتنـكِ، فتدثـرتِ بـه ومضيـتِ تبتعديـن، والجميـع يتبعـكِ.

فالتقطـتُ حقيبـتي الـتي كنـتُ قـد جمعـتُ بهـا الصـدف مـن البحـر، ومضيـتُ عائـد إلى منزلـي أصنـع العقـود لأبيعهـا في الصبـاح، بينمـا تُخالجـني صورتـكِ..

وعندما أويتُ إلى فراشي، وقبل أن أسدل جفنيّ، تمنيتُ لو أراكِ مرة أخرى.

★★★

وبينما أنا جالس يوماً أسفل إحدى الأشجار..أصنع العقود، فإذا بكِ تدنين مني وبصحبتكِ الملائكة، وبدا على وجهكِ أنكِ تتذكرينني، فنهضتُ من مجلسي أستقبلكِ في بهجة، وقفتِ أمامي تسألينني:

– ماذا تصنع؟

– إنني أصنع عقودًا من الصدف.

وانحنيتُ والتقطتُ واحداً كنتُ قد صنعته خصيصاً لكِ على أمل أن أعطيه لكِ عندما ألقاكِ مرة أخرى، ناولتك إياه، وأنا أسألكِ أن تقبلي هديتي،

فالتقطه من يدي وطوقتِ به عنقكِ..

– تروق لي هديتكَ، لذا سأمنحكَ هدية، وسيدة الحبُّ لا تمنح سوى الحبِّ.

تطلعتِ إليَّ برهة، شعرتُ فيها وكأنكِ ولَجتِ بداخلي..

– أنكَ تريد فتاة مثلكَ، لكنها غير موجودة في زماننا هذا، ففتاتكَ نادرة!

خيَّم علينا الصمتُ برهة، اعتراني الحزن فيها..

– لا تحزن يا فتى، يمكنني معاونتك، سأمنحكَ قنينة من شراب الآلهة، كلما ارتشفت قطرة منها، عدتَ لشبابك مرة أخرى،

استخدمه، ففي يوم ما ستأتي فتاة من نسل (باندورا)..فتاة نادرة، ستكون حبك الوحيد.

أعطتني القنينة وغادرتْ.

★★★

ومضتْ آلاف الأعوام عليَّ، ولم تظهر فتاتي خلالها، وكلما شاخ جسدي ارتشفتُ قطرة لأعود إلى شبابي، وعندما ناكفني اليأس والقنوط، ذهبتُ إلى معبدكِ وجثوتُ أمام تمثالكِ..أسألكِ العون.

- لقد ارتشفتُ آخِر قطرة بقنينتكِ، وأخشى أن أشيخ هذه المرة دون أن أجد حُبي..عاونيني يا (فينوس).

وعدتُ بعدئذ إلى مسكني، وأويتُ إلى فراشي، وأنا أتمنى ألا تكوني قد تجاهلتِ أمنيتي..

وأمس حلمتُ بكِ..وقد أتيتِ ومعكِ فتاة تشبهكِ، ودنوتِ مني ووضعتْ يدها الصغيرة في راحة يدي..!

استفقتُ من حلمي، أتساءل إن كانتْ هذه علامة منكِ، وأنكِ استجبتِ لي، وأن أمنيتي باتتْ وشيكة..

لكن لازلتُ أنتظر.. أنتظر فتاتي النادرة!

فهل ستأتي؟

في عشق اللّٰه

ارتقى إلى ذروة أحد الجبال، وجثا على ركبتيه، يشكو همّه إلى اللّه!

★★★

ربي إنهم يقولون أنني أجحدكَ، وأنتَ وحدك تعلم، كم أؤمن بكَ

يقولون أنني أمقتكَ.

وأنتَ وحدك تعلم مقدار حبي وعشقي لكَ.

يقولون إنني أهرب منكَ، وكيف أهرب، وأنتَ مني وأنا منكَ، ربي إنني أستنشق عطركَ عندما يرتطم وجهي بنسيمك صباح كل يوم، أستشعر دفأكَ عندما تلفحني حرارة هوائك، أستشعر حنينك عندما أتكور في زاوية غرفتي أقفقف من شدة البرد، وأخبركَ بمعاناتي، فأصغي لصوتكَ يواسيني ويرفع همي.

أبتِ..

كيف لا أؤمن بكَ، وأنتَ ممتزج بي، وبقلبي، وبوعي، وبحروفي ووجودي!

فأنتَ نبضي، ونبض الوجود.

وأنتَ الوجود، وإنكَ وحدك الموجود!

وأنت الوعي، ومنكَ الوعي، وإليكَ الوعي،

وأنتَ الحبُّ، ومنكَ الحبُّ، وإليكَ الحبُّ.

★★★

يا من عشقتكَ.. بكَ!

إنهم يستنكرون تذمري عندما أرفض ادعاءهم بأنكَ بعيد عنا! وكيف تكون بعيدًا، وقلوبنا تنبض بكَ؟ ودماؤنا ممتزجة بكَ، أنتَ سلامنا، وحروبنا، وأنتَ وجودنا، وعدمنا.

إنكَ قريب، أقرب من أنفاسنا الزائفة، وأقرب من صور عيوننا الخادعة!

إنكَ تحتوينا، وتحتوي كل شيء، وأنتَ كل شيء، فأنتَ لا مثلكَ شيء!

إن أبصارهم تخرج خارجهم لتجوب هائمة بحثاً عنكَ،

ولا تحاول قط أن تلج إلى داخلهم، لتجدكَ ساكنًا أعماق قلوبهم.

لكنهم لا يدركون، ولا يصدقون..

وما أدراهم فهم بشر لا يشعرون!

إنهم يقتلون إخوتهم تقرباً إليكَ

وأنـا أعلـم أن مـن زعـم أنـه يَقتُـل تقربـاً إليكَ..كفـر بـكَ. إنهـم يـا أبـتِ، ملطخـون بدمـاء الأبريـاء! إنهـم دنسـوا الأرض الطاهـرة بأفعالهم القـذرة! إنهـم يسـتغلون اسمـكَ، ولـو طالـوا ذاتـكَ لاسـتغلوها!

إنهـم سـاذجون..يصلبون، ويبـترون أطـراف مُعلمهـم ثـم يسـألونكَ الفـردوس!

ووحدهـم السـاذجون مـن يسـألونكَ الفـردوس وفي قلوبهـم مُقـتٌ، وشـرٌ لإخوتهـم؛ فالفـردوس ليسـتْ مكانـاً يُسـكن، بـل طمأنينـة لا ينالهـا سـوى الأنقيـاء !

لا ألومكَ أبتِ أنكَ جعلتني من جنس المفسدين في الأرض!

رضيتُ بنصيبي..

وأحبهم لأجلكَ!

★★★

إنني أثم يا أبتِ عندما أصفكَ بكلماتهم وحروفهم،

وأنتَ لا تصفكَ الكلمات ولا الحروف!

وإنهم سينزعجون ويسخطون عليَّ،

إن خاطبتكَ بـ أنتِ بدلاً من أنتَ..!

فحروفهم تصنع لكَ الحدود، وتكبلكَ بالقيود،

وأنتَ من لا حدود له، ولا قيود عليه.

إنــني أنزهــكَ أبــتِ عــن كل كلمة..وصفــوكَ، ووصمــوكَ ونعتــوكَ بهــا!

إنني أنزهكَ حتى عن كلماتي تلكَ!

★★★

يا من بزغتُ منكَ،

وعشتُ بكَ،

وإليكَ أعود!

أتيتُ إليكَ لأنكَ وحدكَ مَن تعلم ما في نفسي، ومُبتغي..

أتيتُ، أسألكَ الغفران، وأخبركَ بعشقي، إنني عاشق للطبيعة، عاشق للحبُ، عاشق للحياة، عاشق للموتُ، إنني عاشق لكَ يا إلهي، بكل ما تحتويه، وأنتَ وحدكَ من تحتويني.

غفرانكَ ربي..غفرانكَ.

اللغز الغامض

كم أنتَ غريب أيها الحبُّ!

كم أنتَ لغز غامض..مبهم، لا ينوي أن يفشي لنا سره..لكي نعقلهُ!

تُضيء لنا سرابك ليبدو وكأنه حقيقة ماثلة أمامنا. وعندما ندنو منه، يتلاشى شيئًا فشيئًا،

ولا يلبث حتى يُضاء في مكان أبعد.

فنقف واجمين، غير مصدقين لبرهة.

ثم نمضى نحاول مرة أخرى.

وعندما ندنو.. يبتعد!

وندنو..فيبتعد!

وندنو..فيبتعد!

ونظل نحاول حتى نهوي على ركبتينا مرهقين، موجعين، متعبين..نلهث.

وحينئذ نتأكد أنه كان مجرد سراب..خدعتَ أبصارنا به.

تُفطر قلوبنا حزناً.

وتُربد وجوهنا نقماً.

تُعذبنا، وتُضنينا، وتلقي بنا في جحيم شوقك.

كم أمقتك أيها الحبُّ،

لأنك كالبحر الجارف..

تخطفنا لتلقي بنا على شاطئ الأمل برهة!

قبل أن تجتذبنا غير مكترث بتشبثنا،

فنغرق في هزعك، ودوامات عبثك..

لتلقي بنا على شاطئ غيره..

قبل أن تجتذبنا مرة أخرى.

وهكذا نبقى دائما بين أحضانك!

ساكنين خلف قضبانك!

نحيى على ألمك،

وأفواهنا مُفعمة بسُمك،

حتى تطوينا في قبرك.

مهلاً!

قالتْ لي إحداهنّ يوم : لِمَ دائما قصتكَ حزينة ، تعيسة ، مؤلمة ، تَنسخ ابتسامتنا؟

قلتُ لها : وهل تظنين أنها لو كانت غير ذلك ، كانت ستترك فيكِ أثرًا؟!

الفهرس

قلوب واهنة

قلوب..

ركيكة، ضعيفة، هشة!

ترسم مشاعرها فوق أوراق تأججت

بالحزن والألم، والأسى والندم.

وبأيدي مرتعدة، تلتقط الجزوات من وسط نار الذكريات،

فتنبعث ألآمها، لتضنى نفوسها، وتثقل اجسادها!

لكنها ترسم تلك المشاعر، لعلها تزيح همها، وتخمد نارها،

وتضمد جروحها، أو لتكون ذكرى خالدة بعد موتها..!

